قتلت والدي...

من أجل أبي

الكتاب: قتلت والدي...
من أجل أبي
المؤلف: محسن أمين
عدد الصفحات: 120

الطبعة: الأولى – 2019
الناشر: دار النخبة 6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل
أمام سور نادى الزمالك – 01288688875
E-mail: alnokhoba@gmail.com

قتلت والدي...

من أجل أبي

محسن أمين

النخبة
للطباعة والنشر والتوزيع
2019

إهداء

أهدى هذه الرواية إلى ابنتي الحبيبة ونور عيني وروح قلبي

الجميلة ، نورهان محسن

محسن أمين

(1)

* في ثاني أيام شهر رمضان المبارك.

وقبل آذان المغرب بدقائق، وكل الأسر المصرية ملتفة حول موائد الطعام، في انتظار انطلاق مدفع الإفطار، وصوت آذان صلاة المغرب.

الهدوء، والسكون يعم أرجاء القاهرة الفاطمية الصاخبة و المزدحمة بسكانها، ويسود أيضًا الهدوء الشارع الذي أسكن فيه، بالرغم من كونه شارع رئيسي.

* كل البيوت، والشقق في سكون تام، لا صوت يعلو فوق صوت القرآن الكريم، قرآن ما قبل آذان المغرب، روحانيات جميلة ورائعة، لا تجدها إلا في مصر المحروسة القاهرة الفاطمية الأزهر، والحسين، وخان الخليلي، والغورية.

وموائد الرحمن في كل مكان، وفوانيس رمضان، والزينة بكل شارع وحارة.

وصوت قيثارة السماء، الشيخ محمد رفعت يتهادى في كل مكان،

شهر رمضان، شهر نعيش فيه، ويعيش فينا، وننتظره بحنين وشوق شهر محبب لنفوس كل المصريين.

* وجلست أنا وأمي المريضة وحدنا على مائدة الطعام، في انتظار مدفع الإفطار.

فأنا وحيد أمي بعد موت أخواتي البنات، وهم في عمر الشباب بمرض وراثي بالقلب، واحدة بعد الأخرى في غضون أربع سنوات فقط، رحلوا جميعًا.

لم يتحمل أبي هذا البلاء العظيم، ومات حُزنًا وحسرة عليهم، بعد أن فشلت كل المحاولات الطبية معهم، لإنقاذهم من الموت، عندما يصلوا لسن الخامسة عشر عام.

* مات والدي وأنا في المرحلة الثانوية، رحلوا جميعًا وتركوني أنا وأمي وحدنا وتولّت أمي رعايتي، بالرغم من إصابتها بالشلل

وصبرت أمي على البلاء، والمرض، والفراق، بقوة إيمانها وصبرها، وعزيمتها.

صبرت وتحملت الحزن من أجلي، من أجل ألا تتركني وحدي في الدنيا عاشت بالرغم من زهدها للحياة و للناس من أجلي، حتى تخرّجت من كلية الإعلام، بفضل الله وأمي، أطال الله عمرها.

* وبفضلٍ من الله، ودعاء أمي، شقّيت طريقي بنجاح، ككاتب وروائي معروف ومؤثِّر في وجدان الشباب، حتى أصبحت لهم رمز للحب والرومانسية، فكانت كل رواياتي تنفَذ كل طبعاتها فور صدورها.

* و بالرغم من عجز أمي، وكونها لا تتحرك إلا من خلال الكرسي المتحرك.

وبالرغم من محاصرة الأمراض لكل جسدها الضعيف و قلبها الحزين، ترعاني، وتسهر الليل من أجلي، وتخفي عني الآمها وعذابها، حتى لا أتأثر وأحزن.

كنت أجد المتعة و السعادة، و إلاحساس بالأمان وأنا في حضنها كطفل صغير.

* علمتني أمي كل شيء، الإيمان، والتواضع، حب الوطن، حب الناس، والصدق.

وعلمتني أيضاً الطبخ، وكل أعمال المنزل، بعد إصابتها بالشلل.

وبفضل أمي أصبحت طباخ ماهر، أنافس أي ربَّة منزل وأتفوق عليها.

وبفضل أمي كانت حياتي مستقرة، وهادئة، مما ساعدني على الإبداع.

حتى أصبحت من أشهر الأدباء، وكُتّاب الرواية، صاحب رأي حُر ومهم في عالم السياسة.

* أمي كانت نموذج رائع للأم المصرية الصابرة، المؤمنة، حقًا إذا أحب الله عبدًا ابتلاه في أعز الأحباب، وفلذات الأكباد،

موت أخواتي البنات وأبي بسبب مرضهم بالقلب.

لذا كنت ولا زلت قُرة عين أمي، وكل حياتها، وأملها الباقي.

عاشت، وتحملت أوجاعها، ومرضها من أجلي.

* و بالرغم من تجاوز عمري الثلاثين عام بسنوات، كانت تخاف عليَّ بجنون، كأنني طفل صغير، لكوني وحيدها فى الدنيا، أخر ما تبقى لها من أولادها.

ولكوني مريض، وأعاني من وجع قلبي، قلبي الضعيف، المرض الوراثي للعائلة.

(2)

* وأنا جالس مع أمي الحبيبة في انتظار مدفع الإفطار، نستمع لتلاوة شيخنا الجليل محمد رفعت (سورة الرحمن)، ما أجملها، وما أجمل معانيها.

وانطلق مدفع الإفطار، وصوت آذان المغرب يتهادى من كل مكان بأرجاء المحروسة.

وقبل أن أشرب كوب عصير المانجو، أروي به ظمأي من حرَّ الصيف الشديد.

أقتحمت قوة من رجال الشرطة شقتنا ، وتقبض عليَّ أمام أمي العاجزة، بدون رحمةٍ تم القبض عليَّ كأنني مجرم خطير، أو إرهابي، أو زعيم عصابة.

* تم القبض عليَّ بقوة كبيرة من رجال الشرطة، بالرغم من كوني إنسان وحيد، ومريض، ومُسالم، وهاديء الطباع، وليس لي مشاكل مع أحد، إلا الحكومة، ورجالها.

قبضوا عليَّ بسبب آرائي، وكتاباتي، ومقالاتي، وانتقاداتي للحكومة وكشْف فسادهم.

ومقاومة فكرة التوريث، والخصخصة، وتزوير إرادة الشعب بشكل فاضح.

تم القبض عليَّ بطريقة وحشية، وغير آدمية، وإهدار للكرامة والإنسانية.

تمت إهانتي أمام أمي، والجيران، لأني صاحب رأي، رأي حُر.

ولم يرحموا توسلات أمي، ولا حُرمة الشهر الكريم، ولا لكوني إنسان مريض، وصائم.

* مهما فعلوا، فلن يرهبوني، ولن أخضع لهم، أو أخاف منهم.

فقلبي الضعيف قوي بالإيمان، والمباديء، وحب الوطن، أرضه وشعبه.

وستظل قضيتي، الدفاع عن أبناء وطني، ومحاربة الفساد والفاسدين، والظالمين.

وفي العصر المبارك، آخر فراعين مصر الظالمين، ذاق الشعب كل أنواع العذاب، والظلم، والقهر، وخَرْس الألسنة، وتقييد الحريات وأكبر عملية فساد ونهب للبلاد.

في عصره، رُفِع شعار الموت للفقراء، والشرفاء، وأصحاب الرأي..

* كانت هناك خطة لإبادة هذا الشعب، بتلويث كل شيء حوله.

تلويث الماء، والهواء، والغذاء، والفكر، والعقل.

وفى عهد هذا الفرعون، أحتلت مصر المراكز الأولى في الوباء الكبدي، والأمراض الخبيثة.

أسف عزيزي القاريء، عزيزتي القارئة، فقد خرجت بكم عن حكايتنا، نرجع تاني...

(3)

* تم القبض عليَّ، وأقتيادي وسط حراسة مشددة، وقُذِف بي داخل سيارة الشرطة، وتسير السيارة مسرعة، وسط شوارع القاهرة الخالية من الناس والسيارات.

تم القبض عليَّ، وأنا لا أعرف ما تُهمتي، سوى أنني كاتب وصاحب رأي.

* وتم أقتيادي لداخل قسم الشرطة، وإدخالي غرفة الحجز بصعوبة بالغة، نظرًا للإزدحام الكبير بالغرفة ويغلق العسكري الباب خلفي بصعوبة.

ودخلت الغرفة لأجد معظم المحجوزين عُراة من شدة الحرارة ورائحة أجسادهم المتلاصقة من الزحام، تفوح برائحة عفنة، رائحة غريبة، لم أشمها من قبل.

دخلت غرفة الحجز لأجد نفسي محشور بين مجموعة من الأجساد البشرية، وباب الحجز خلفي.

ويصبح كل عضو من أعضاء جسدي الضعيف في مكان، لا أعرف مكانه أو مصيره، داخل هذا القبر الجماعي، ولا يوجد موضع لقدم ولا أدري أين أضع قدماي، ولا أدري أيضًا إن كنت واقفًا، أو مُعلقًا.

ولكن الشيء المؤكد هو أنني محشور، محشور يا بلدي.

* ولم أتحمل، ووجدت نفسي منذ اللحظات الأولى أختنق، أختنق من شدة الحرارة داخل غرفة الحجز، ومن الرائحة العفنة التي تفوح من أجساد المحتجزين داخلها.

ورائحة الدخان التى تغطى أركان الغرفة، دخان السجائر.

وروائـح أخرى تصدر من المحتجزين، روائـح مسموعة، أو مكتومة، وما أدراك ما هي المكتومة، هي الأخطر والأقوى تأثيرًا من شمّ الهيروين.

* شعرت أني أختنق، أختنق، وصدري يحترق، وبطني تنتفخ وتنتفخ ، وأموت بالبطيء.

شعرت برأسي تدور..وتدور، وكل شيء يدور حولي، ومغص شديد ببطني، وأمعائي تتمزق، وتكاد تخرج من بطني.

وأشتد بي التعب والإرهاق، والعرق يخرج من كل أنحاء جسدي من رأسي لقدماي.

وقدماي لم تعد تستطيع حملي من الألم.

أريد أن أتقيىء كل ما في معدتي وتذكرت أن معدتي خاوية، لا أكْل بها، ولا ماء.

أنا لم أفطر إلى الآن، مازالت على صيامي، آه يا بلد راح فيكي الولد.

* أعترِف بذكائهم، قرروا قتلي بطريقة مختلفة، بدون أن يلمسوني، قتلي بالجوع، والانتفاخ والقَرفَة، وعدم النوم، و الوقوف على قدماي.

طريقه ذكية للتخلص منِّي، بدون أيّ إدانة، وكأنني مِتُ بالسكتة القلبية.

* حاولت أن أصمد، وأقاوم العطش والجوع، وقَرَف معدتي وحَرْق صدري، ووجع بطني، حاولت أن أصبر، وأجاهد.

ولكن زاد الألم، والحزن، عندما تذكرت أمي، وخوفي عليها أن يحدث لها مكروه ، خايف على أمي من خوفها عليّ.

أمي صاحبة أمراض، من يرعاها من بعدي، هي لا تقوى على الحركة، عاجزة.

* ووقفت أتأمل غرفة الحجز، التي لا تصلح لحجز إنسان، ولا حتى حيوان.

غرفة الحجز أو التخشيبة كما يطلقون عليها،غرفة قابعة تحت الأرض، ببدروم القسم.

غرفة لا تدخلها شمس، ولا هواء، وتسكنها جميع أنواع الحشرات سواء الزاحفة، أو الطائرة.

حشرات تتغذى ليل نهار على أجسادهم، وتتوغل فيها، تلدغ وتمُص دمائهم، كالحكومة المباركة.

* وكان من حظي العاثِر، أنني وقفت، قصدي أتحشرت أمام دورة مياه غرفة الحجز.

وما أدراك ما هى دورة المياه، شيء بَشِع، وقَذِرومُميت.

دورة مياه أقل ما يقال عنها، أنها إهانة للحيوان.

دورة بدون باب، بقاعدة على الأرض، قصدي فتحه بأرض الغرفة يقضي فيها المحجوزين حاجتهم، وكوز صاج مصدي للغسيل.

أما أرضية الدورة وحوائطها، فحدّث بكل حَرَج، ليس لها لون.

* شعرت وأنا واقف محشور أمام دورة المياه، أن كل جسدي يتألم ويصرخ من الظلم.

شيء بَشِع ومُقرِف، وأنت ترى كل من يدخل الدورة، يقضون حاجتهم أمامنا جميعًا، لعدم وجود باب، مناظر بشِعة، وخدْش للحياء.

وأصوات وروائح تخرج مباشرة، بث حيّ، على الطبيعة ، من الدورة إليك مباشرة.

ومن حظي العاثر، وجود رجل ضخم الجسد بداخلها، يُخرج أصوات كأنها قنابل ذرية، يُفرِغ ما بداخله، كأنه يُفرِغ عربة كَسْح مجارى، رجل غير طبيعي، يُدعى الأخطبوط.

* فالواضح أن الواقف أمام هذه الدورة منفوخ، منفوخ، ياولدي قصدي مفقود، مفقود.

لذا كان من الضروري الإسراع و البُعد عن هذه الدورة المُميتة بسرعة.

ولكن كان السؤال المهم، و الصعب.

كيف أنتقل، وأنتقل وسط هذه الرؤوس المُتراصة، والأجساد المتلاصقة بعضها ببعض ؟.

أكيد مهمة مستحيلة وصعبة، ولكن لابد من تنفيذها، حتى ولو كانت حياتي هي الثمن.

فالأفضل لي أموت بعيدًا عن هذه الدورة، والمناظرالتي بداخلها بث مباشر صوت وصورة.

تخرج من هذا الرجل أصوات تهز أرجاء التخشيبة، والمعدة والصدر.

ونظرت إلى بطني، وجدتها تنتفخ، وتنتفخ، كأني فى شهور الحمل الأخيرة.

* فكرت كثيرًا ا كيف أتخطى هذه الرؤوس و الأجساد... عملية انتحارية ولكن لا ألابد من تنفيذها وبسرعة، بل وبأقصى سرعة ممكنة.

فالطريق فى التخشيبة يبدأ بخطوة، خطوة ورأس، رأس وجسد جسد، وبالفعل بدأت المهمة الصعبة.

وللأسف مع كل خطوة أخطوها أفقد، أفقد جزء من ملابسي وكرامتي.

مع كل خطوه أُهان، وأُضرب، وحركات وتصرفات يحرِّمها القانون والشرع.

ولكن أين هذا القانون، وأين العدل، والرحمة، واحترام الإنسان فى غرفة الحجزأو التخشيبة.

وتحملت كل الصعاب و الإهانات من أجل أن أنجو بنفسي وعمري، وأنجو ببطني قبل أن تنفجر، ومتمسك بالأمل، بصبر وإيمان، وعزيمة.

* وبعد وقت طويل، ورحلة شاقة ومؤلمة، تعرضت فيها لكل العذاب والإهانة، وقلة الأدب، نجوت بنفسي، ووصلت إلى رُكن بالغرفة، رُكن بعيد عن هذه الدورة القذرة، والأخطبوط الذي كان بداخلها.

وللحق كانت هذه الرحلة أطول وأصعب رحلة في حياتي، برغم قِصَر مسافتها المهم وصلت إلى رُكن الغرفة أوحُشِرت بجانب الحائط، أحاول جاهدًا أن أستعيد أنفاسي، من عناء الرحلة الصعبة و الشاقة.

وأحاول أن أهديء معدتي التي تصرخ ، وكل عضو من أعضاء جسدي يصرخ ألمًا وقهرًا.

* وقفت برُكن التخشيبة، ولم أصدق أني وصلت سالمًا، ومازالت حي أتعذب.

وقفت أتأمل نفسي، وما حدث لي، أو ما بقي منِّي، بعد هذه الرحلة الشاقة.

ووجدت ما تبقى لي بقايا بنطلون، وفردة حذاء واحدة، وملابسي الداخلية، الحمد لله سليمة معنى ذلك أنني ولله الحمد مازلت على عُذريتي، بعد كل قلة الأدب التي تعرضت لها.

عزيزي القاريء ، عزيزتي القارئة، هذا ليس مُزاح أو سخرية، إنما هذا ما حدث بالفعل، في التخشيبة.

وهذا ما يحدث لكل صاحب رأي، واسألوا الكاتب المُعارِض (قنديل) وما حدث له، من رجال النظام، جرَّدوه من ملابسه، وتركوه عاريًا بلبوص بالصحراء.

(4)

* وبعد وقت قصير بدأت أستعيد إدراكي، وأخذت نَفَس عميق، نظرت لنفسي بحُزن وأنا لا أصدق ما حدث لي، في هذه التخشيبة الملعونة، الموبوءة.

شعرت بحزن كبير، وإحساس بالظلم والقهر، وكراهية كبيرة لهذا الحاكم الفرعون العجوز، الذي أهان وعذَّب الشعب، وأهدر كرامته وسرق أمواله.

المهم وقفت برُكن الغرفة، أحاول الصمود، والتمسك بالحياة والأمل.

* و الخروج من هذه التخشيبة حي، من أجل أمي المريضة،

أخرج لأمي، وأرتمي في أحضانها، لكن لابد من الصمود، والتحدي، والصبر، وإلايمان.

* لازم ولابد أن أشغل نفسي بشيء، حتى أنسى تعبي وآلامي.

أشغل روحى بذكر الله، وأشكو إليه من ظُلم عباده، وحكامه في الأرض.

وبعد حديثي مع الله، وشكوتي إليه ، بدأت أبحث عن مفكرتي الصغيرة، التي لا تفارقني، هي وقلمي، والحمد لله وجدتها بفردة بنطلوني الباقية، لم يسرقوها، من حُسن حظي.

وبدأت أوصف التخشيبة بكل ما فيها، من حوائط وأسقف، ودورة مياه، وبَشَر ولم أنسَ أن أصِف هذا الرجل الأخطبوط، وما يخرج منه من أصوات تهز أرجاء التخشيبة.

أما ما حدث لي داخل هذه التخشيبة، سأكتبه، لو خرجت منها حي.

* وأثناء تأملي لوجوه البشَر الموجودين بداخل هذه الغرفة، أو داخل هذه البلاعة وما يحدث فيها، من كل الانتهاكات، والمخالفات التي يُجرِّمها الشرع والقانون.

تجد تصرفات إباحية، منافية للآداب، وأقوال لم أسمعها من قبل تخدش الحياء، وتسُم الأبدان، وشُرْب وتعاطي كافة أنواع المخدرات و البرشام.

كل شيء مُحرم قانونًا وشرعًا، تجده في التخشيبة، عالم غريب وعجيب وإجرام داخلها.

ونظرت بجانبي وجدت شاب أنيق، ووسيم، وحزين، صامت، وشارد، هذا الشاب يقف على نفس الحائط التي أقف عليها ولكن يبعد عنّي حوالي مترين.

* أثار دهشتي هذا الشاب، وجذب انتباهي بصمته، ونظراته الحزينة، وشعرت بحاستي الأدبية إحساس كاتب مهموم بحياة أبناء وطنه، أن وراء هذا الشاب حكاية مثيرة، وحزينة.

ولكن كان هناك سؤال صعب الإجابة عليه، كيف أصل لهذا الشاب.

* من الصعوبة الوصول لهذا الشاب وسط هذا الحَشر العظيم من البشَر،والأجساد المُتراصة و المُتلاصقة، و الرؤوس اليانعة ،

حقاّ مهمة صعبة، برغم قِصَر المسافة.

ماذا أفعل؟ لكي أصل لهذا الشاب، أطير من فوق الرؤوس، أم أمشي على الحائط ، أم أرتدي طاقية الإخفاء.

* وياترى ماذا سأفقد في هذه الرحلة القصيرة، ولم يبقَ لي غير بقايا بنطلون، وفردة حذاء واحدة، وملابسي الداخلية.

وللحق كنت خائف أن أفقدهم لو أقدمت على هذه الرحلة القصيرة. ونظرت للشاب مرة أخرى، وجدت نفسي مشدود إليه، ولنظراته الحزينة.

وقررت، وعقدت العزم أن أقوم بهذه الرحلة الصعبة لذلك الشاب الحزين مهما كلفني الأمر.

وبكل شجاعة وإقدام، بدأت المهمة الشاقة، بدأت المهمة، وقاومت بكل شجاعة، وتصدّي، وصمود.

ودافعت بكل قوة عن فردة حذائي، وبقايا بنطلوني، وملابسي الداخلية، أموت بشرفي في بيت الحكومة الفاجرة.

وبدأت الرحلة، خطوة ، خطوة، وكلي حِرْص على لباسي، مَسَكت به بكل قوة.

ومع كل خطوة أخطوها، أُسب، وأُهان، وأُضرب، وأحيانًا أُعض في... وقررت أن أسير وظهري للحائط لحماية... ، من المفترسين و المسعورين والحمد لله ستر عليَّ ربنا، ووصلت بدون خسائر، إلا فردة حذائي الأخرى، (توظ)، المهم لباسي الداخلي سليم.

* ووقفت بجانب الشاب الحزين أستريح، وألتقط أنفاسي، وجسدي وعقلي، ومرت دقائق وللأسف لم يشعر بوجودي بجانبه، ولم يلتفت لي، ولم يُعيرني أيّ اهتمام، أو حتى نظرة.

نظرت بإمعان وتأمل لذلك الشاب الحزين، وجدته شارد، صامت ودموع محبوسة داخل عينيه تصرخ بصمت ، شاب جميل، وجهه بريء، وشعره أسود، طويل ممشوق القوام، هادئ، بشرته بيضاء، (مش وش إجرام خالص).

وبحاستي الأدبية، وخبرة السنين، شعرت أن داخل هذا الشاب حكاية، أو مأساة.

هكذا تقول عينيه، وصمته الصارخ.

ولذلك لم أضيّع وقت، ولم أضيّع الفرصة، وأنا بجانبه ، وقررت أكون الباديء بالحديث، وألقيت عليه التحية بابتسامة.

حاولت التعرف عليه، وطلبت منه التحدث معي لنكسر حاجز الملل والصمت، والجوع، والعطش، والرائحة العفنة، والحَر الشديد والتعب.

طلبت منه أن يتكلم، نفتح قلوبنا لبعض، وننسى آلامنا وأحزاننا، وما يحدث لنا داخل هذه المقبرة الجماعية.

وظللت أتحدث، وأتحدث، وفوجئت بعد وقت قصير، أنني أتحدث مع نفسي، لا يدري بي، ولا يسمع حديثي له ، وظل هذا الشاب على حزنه، وشروده، وصمته، كأنه في عالم آخر لم يسمعني.

* ولم أيأس، وعاودت الحديث مرة أخرى، أحدثه عن ما حدث لي داخل هذه التخشيبة، من تمزيق ملابسي، وسرقة حذائي، وسرقة أموالي.

أتبهدلت لمجرد أني فكرت أبعد عن دورة المياه، و الوصول إليك.

على فكرة أنا رجل مُتعلم، ومُحترم، وابن ناس، وصاحب فِكر ورأى ووجودي هنا بسبب آرائي، وإنتقاداتي للحكومة والفساد.

* فجأة التفت لي الشاب بابتسامة حزينة، يتأملني من رأسي لقدماي، وأنا أقف أمامه بملابسي الداخلية، وشعر منكوش، ووجه شاحب من التعب، شعرت بخجل من نظراته لي، ثم عاد مرة أخرى لصمته، وشروده.

* فقررت أن أبتعد عنه، أو أصمت، لا أتحدث معه لشعوري أني شخص غير مرغوب فيه، ولا أريد أن أكون شخص مُتطفل،

ورأيت من الأدب أن أعتذر لهذا الشاب لتطفلي، وأتركه مع أحزانه.

وقبل أن أبعد عنه، نظر لي بإبتسامة حزينة، معتذر لي بأدب وذوق قائلًا لي:

- أسف جدًا ، وأرجو قبول اعتذاري، سامحني.

* كانت مفاجأة سعيدة، تحدث هذا الشاب معي، وإعتذاره لي بأدب، وحبيت أن أُعرّفه بنفسي، وردَّ بإعجاب وهدوء، وثقة ونظرات كلها تقدير لي.

- أنا أعرف سيادتك، حضرتك الكاتب و الروائي، والمُعارض والسياسي البارز، ومحامى الفقراء، والمظلومين، والمُهمَشين وحبيب كل الشباب، حضرتك الأستاذ «نادر رؤوف»، حضرتك مَثَل أعلى لي ولكثير من الشباب، بقلمك الجريء وإحساسك المُرهف، حضرتك رمز الرومانسية، رسول الحب و الغرام.

طول عمرك صاحب مبدأ، لا تعرف النفاق، ولا الخوف، تعبِّر عن كل المصريين، وتسبح ضد الفساد ، تسبح ضد التيار.

* فوجئت بكلمات هذا الشاب لي، وأنه يعرفني، في زمن لا يعرف فيه الناس غير لعّيبة الكورة، والفنانين، والراقصات.

شعرت بفخر بكلمات الثناء، والمديح، و الإعجاب من هذا الشاب لي كنت سعيد جدًا...

شعرت بالأمل بجيل جديد، جيل المعرفة، والفيس بوك، وتويتر جيل الإنفتاح على العالم الخارجى، جيل مثقف وواعي.

* ثم عاود الشاب الحديث بهدوء وبنبرة حزينة قائلًا لي:

- أعرف حضرتك وأنا في المرحلة الثانوية، من خلال رواياتك ومقالاتك، تأثرت كما تأثر جيلي بإحساسك المرهف، ومشاعرك الرقيقة، علمتنا الحب.

كنت لي ولجيلي رمز عظيم، وفارس نبيل، شجاع، جريء، لا تخشى أحد لذا كنت مثلي الأعلى، وأستاذي، وصديقي.

أنا صديق دائم لموقعك منذ سنوات، ستجد إسمي ضمن المئات من الشباب، والمعجبين بكتاباتك، والمتابعين لأعمالك.

* يعلم الله كَم أثلج هذا الشاب صدري، أسعدني ثنائه عليَّ، وعلى كتاباتي.

وأنتهزت الفرصة وفتحت الحديث معه، وسألته عن أسمه، وعن سبب وجوده في هذه التخشيبة الملعونة القذرة.

ورد عليَّ الشاب بِحُزن وهدوء ويأس.

- أنا اسمي «وافي الهادي الطيب».

- الله، اسمك رائع، ومريح، ونادر، وكله موسيقى.

- وأنت تعمل، أم مازلت طالب؟؟

- أنا خريج حديث من كلية الهندسة، مدني، بتقدير جيد جدًا، جامعة القاهرة.

* وعُدت أسأله عن سبب وجوده بهذه المقبرة، قصدي التخشيبة، نظر لي (وافي) بِحُزن، وصَمْت، وانكسار، ثم وضع وجهه بالأرض خجلًا، ولم يرد.

إحترمت صمته، وحزنه، والتزمت الصمت، ولم أسأله مرة أخرى.

وبعد لحظات من الصمت، نظر لي (وافي) بدموع حزينة، وعاود حديثه معي قائلًا:

- كما قلت لحضرتك، أنا أسمى (وافي)، وخريج حديث من كلية الهندسة، وأعمل، قصدي كنت أعمل بشركة مقاولات خاصة من شهور قليلة.

ووالدي الأستاذ الهادي الطيب، يعمل مدرس لغه عربية، وإمام مسجد، ورئيس جمعية الخير، وله نشاطات خيرية كثيرة.

ولي ثلاثة أخوات بنات، الكبرى بكلية الإعلام، والوسطى بكلية الألسن، والصغرى بالمرحله الثانوية.

أمي للأسف توفت منذ عام تقريبًا، متأثرة بالمرض، الله يرحمها،

أما أنا فخاطب بنت خالي (ولاء)، خريجة كلية التربية قسم انجليزي، وتعمل مدرسة، (ولاء) هى حب عمري، وأمل حياتي، هذه هي كل أسرتي.

- ولكنك لم تخبرني عن سبب وجودك هنا، أنت هنا ليه !

أرجوك اتكلم، عرّفني عليك أكثر، وتتعرف عليَّ، ونكسر حاجز الملل، و الجوع، والعطش، والتعب، والحزن.

- تحب أحضر لك أكل من الخارج، فيه راجل بيدخل هنا معاه ساندوتشات، ومشاريب.

* الاستاذ (نادر) ينظر لـ وافي بابتسامة ساخرة حزينة، ويظهر على وجهه القَرفَة، قائلًا :

- تفتكر يا بشمهندس وافي ممكن الواحد يجي له نفس للأكل والشرب وسط هذا القرَف، والروائح الكريهة، العفنة، أو ممكن ناكل من التخشيبة.

سيبك من الأكل و الشرب، أنا عاوز أعرف أنت هنا ليه !

* وافي ينظر للأرض خجلًا، قائلًا:

- آسف، أعذرني ياأستاذي العزيز، لن أستطيع التحدث لحضرتك عن سبب وجودي هنا إلا بكلمة واحدة، وأرجوك بعدها لا تسألني عن

أي شيء، لأني لن أُجيبك، ولن أرد عليك، غصب عني سامحني، سبب وجودي هنا لأني مُجرِم.

- ليه ؟ وازاي ؟

- لا الوقت، ولا المكان، ولا الظروف، ولا حالتي النفسية تسمح لي بالإجابة، أرجوك.. أرجوك ياأستاذي العزيز تقبَّل أسفي واعتذاري، لن أزيد عن ما قلته.

* أحد المحتجزين يقف أمام الأستاذ نادر رؤوف، ووافي (قصدي ملتصق بهم)، وجهًا لوجه ينظر لهم بدهشة، ثم يضحك ساخرًا بصوت عالي، ثم يضرب بيديه كف على كف، ثم ينظر لـ وافي يوبخه قائلًا:

يا بشمهندس وافي، أنت وجعت بطني، ونفختها أكتر ما هي منفوخة، وهتجنني باحترامك لهذا الرجل، حضرتك، وأستاذي ومُعلمي.

* ثم ينظر الرجل لـ الأستاذ (نادر رؤوف) من فوق لتحت ساخرًا، قائلًا:

بالذمة، والدين، والعقل، هذا منظر أستاذ، ولا راجل محترم.

فيه أستاذ يقف بالشكل ده، بالفانلة و اللباس، وشراب بدون جزمة وشعر منكوش زي المجانين، ده مسخرة.

على فكرة الراجل ده مش كويس، مشكوك في أمره.

تقدر تقوللي، فين ملابسه، خلى بالك يابشمهندس فيه رجّالة هنا بالحجز مش كويسين، وأنت فاهمني طبعًا، قصدي أيه..، احترس منه، اسمع كلامي.

* وافي ينظر للرجل بغضب، ثم يقاطع حديثه، ويوبخه، وينهره بشدة، قائلًا :

- أنت راجل قليل الأدب، إنت مالك بينا، محشور فينا ليه.

* الرجل يضحك ساخرًا، ومندهشًا، وهو يقف وجهًا لوجه أمام وافي، قائلًا:

- محشور بأمر الحكومة ، محشورين على بعض ، ولازقين في بعض و الله أنا خايف نخلِّف من بعض، شايف كل اللي في الحجز قالعين ملابسهم ازاي، زي ما تكون حفلة جنس جماعي ، كله لزق في كله ، ربنا يستر علينا من اللزقة، وشر الزنقة.

* وافي ينظر للرجل بغضب واستياء ، قائلًا له:

- ممكن تشوف مكان تاني تقف فيه ، وتبعد عننا.

* ثم ينظر وافي لنادر رؤوف معتذرًا بأدب وخجل ، قائلًا:

- أنا في غاية الأسف والخجل يا أستاذنا.

* فجأة يقاطعه بسخرية وهو ينظر للآستاذ «نادر رؤوف» ، قائلًا بدهشة:

- أستاذنا مين ، أستاذك أنت ، تقدر تقوللي أستاذ بالفانلة واللباس وحافي ، بيدرّس أيه ، ولا مؤاخذة.

(عَجِبتُ لكَ يا زمن)، صحيح اللي يدخل التخشيبة يشوف العجب حاجة تجنن.

* وافي بغضب شديد ينهر الرجل ، قائلًا:

- أنت راجل مش محترم، ومُتطفل، امشي بعيد عننا.

* نادر رؤوف يضحك، ويضحك ثم ينظر لـ وافي قائلًا:

- هدي أعصابك يابشمهندس، واترك هذا الرجل يتكلم، حقيقي دمه خفيف ضحكّني، وبعدين هو بيقول الحقيقة الواضحة قدّامه، واللي ما يعرفش يقول عدس ، واللي يعرف يقول الفرعون، زمن ظالم.

* الرجل ينظر لنادر بإعجاب من كلامه، ويرد قائلًا بعفوية:

- والله الراجل أبو لباس ده بيتكلم صح، شوف حافي، وشعره منكوش بس كلامه دُرر، صحيح اللي إحنا فيه لا يحدث إلا في مصر، في العهد المبارك الميمون.

* ثم بعد ذلك يصيح الرجل في المحجوزين بالتخشيبة قائلًا:

- ادعوله ادعووله.

* يرد المُحتجزين بالتخشيبة جميعًا، في صوت واحد قائلين:

- يخرب بيت أبوه.

* يضحك نادر رؤوف ،ويضحك وافي، ويضحك الرجل ، ثم يمسك بطنه متألمًا بشدة ، وهو يضرب بصباع يديه في الهواء قائلًا :

- واضح إني عاوز أروح دورة المياه، عندي حاجات كتير عاوز أورّدها، مش هقدر أستحمل أكتر من كده ، سامع صفارات الإنذار

اللي بتخرج من...؟ بعد كده هيبقى انفجار أنا قربت انفجر، أصل أنا واكل قبل ما يقبضوا عليَّ ملوحة، وفسيخ، وبصل في الغدا ،وأتعشيت محشي كرنب، شوف بأه الاتنين يعملوا أيه مع بعض.

أنا لازم أمشي، رايح رحلة صعبة لدورة المياه، مش عارف هرجع تاني ولا لأ.

وكلّي خوف معرفش أوصل، ويحصل الإنفجار، وتغرق التخشيبة ، تفتكر ياأستاذ يا أبو لباس أنت أعرف أوصل إزاي، واضح أنك خبرة من ملابسك الداخلية، وليك تجارب بالتخشيبة.

قوللي بالله عليك أروح إزاي لدورة المياه، من أي طريق أفضل.

* نادر رؤوف ينظر للرجل ضاحكاً من خفة دمه، قائلًا له ساخرًا بحُزن:

- الأفضل لك يا أبو دم خفيف تاخد الطريق الدائري، أأمن وأفضل وأسرع.

* الرجل ينظر ل نادر رؤوف بدهشة، قائلًا:

- يعنى أيه الطريق الدائري، أنت بتهزر في الكارثة دي ، التخشيبة في خطر، وأرواح الناس دي كلها في الضّياع لو انفَجَرت.

أرجوك اتكلم ، وقوللي أوصل أزاي، و الطريق كله مسدود و مُغلق.

أنا مزنوق ، مزنوق.. وعلى آخري، وعاوز أجري، وأوقف الانفجار.

إنفجاري أخطر وأقوى من القنبلة الذرية ، دي ملوحة وبصل ومحشي كرنب ياناس.

* الأستاذ نادر رؤوف يضحك، ويضحك، من كلام الرجل وخفة دمه.

وبعد لحظات من الضحك المتواصل، يحاول أن يهدأ من الضحك ويرد على الرجل.

– الطريق الدائري بالتخشيبة معناه، تمشي جنب الحيطة،هو صحيح أطول، لكن أسهل من الاختراق من العُمق.

عارف أنا أصبحت بالفانلة واللباس والشراب ليه !

* يرد الرجل بعفوية وسخرية:

– يا ترى ليه ! حرَّان، ولا رايح تاخد غُطس بدورة المياه.

– أبدًا يا أبو دم خفيف، لأني حاولت اخترق من العُمق، أضّرَبت وقلعوني هدومي ، وسرقوا الحذاء، وبصعوبة وكفاح ونضال قدرت احافظ على الفانلة واللباس، والشراب، وشرفي، كل هذا حدث لي لمجرد إني قررت البُعد عن دورة المياه، و الأخطبوط

وعشان كده بقولك خُد الطريق الدائري، جنب الحيط تمشي، وتخلّى وشك للتخشيبة ، وضهرك للحيط ، طبعًا فاهمني قصدي أيه.

وأنت ملظلظ ، وتخين، وفيك الطمع، وفيه ناس هنا معندهمش رحمه يكلوك أكل، خاصة الراجل الأخطبوط، أبعد عنه.

وعلى فكرة الداخل لهذه الدورة، مفقود، مفقود، والطالع منها منفوخ منفوخ ، يا ولدي.

* الرجل ينظر لـ نادر رؤوف وهو يتأوه من الألم، قائلًا له باحترام :

- يعني أعمل أيه يا أستاذ، خلاص قربت انفجر، وافجّر التخشيبة وتبقى مصيبة، وفضيحة ، ويقولوا إرهابي فجّر التخشيبة، وقتل المحتجزين، غرقًا وخنقًا ، ومن الجماعات المتطرفة.

* نادر يرد وهو يضحك من عفوية وخفة ظل الرجل.

- دلوقتي بتقوللي يا أستاذ ماكنت من شوية أبو لباس

على العموم، بسرعة تخري، يووه، قصدي تجري بسرعة، جنب الحيط ، فاهم جنب الحيط، وتروح لدورة المياه، وستجد ما يسرّك.

أذهب بسرعة ، وأعمل اللي عليك ، ولك شرف المحاولة.

أما لو عملتها على روحك، الرجل الضخم اللي في الدورة، هيعلقك في السقف، ويحط السيخ المحمي في... !

قوللي صحيح أنت اسم ابنك أيه !

- اسم ابني (علي).

- ابسِط يا أبو علي ، أحب ابشرك، لو ملحقتش نفسك، هتاخد لقب أبو خريه، روح بسرعة لدورة المياه، وقلبي معاك، خسارة يا أبو علي، هتروح فطيس و اللهي كان دمك خفيف، وضحكتني، ربنا قادر وحده يجيبك بالسلامة.

- أشوف وشكم على خير، ده لو كان في العمر بقيّة.

* وبدأ أبو علي الرحلة الشاقة ، والمهمة الصعبة، يحاول جاهدًا بجسمه التخين، تخطي الرؤوس والأجساد بصعوبة، وهو يتأوه ويصرخ من ألم بطنه، ومن ضَرْب المحتجزين له، ومحاولة جَذْب بنطلونه، وعضّه، ظللت أضحك أنا ووافي على أبو علي، أضحك وأضحك.

حتى بكيت ، وانسابت مني الدموع ، بكيت بصمت، وحزن كبير على ما يحدث للمصريين.

نظر لي وافي وهو متأثرًا جدًا لبُكائي، ودموعي.

وأخرج وافي كيس مناديله، ليمسح دموعي، يحاول يواسيني، قائلًا بصوته الهاديء:

- أستاذ نادر، أنت بتبكي، أنا أسف.

أكيد هذا الرجل أغضبك بكلامه، معلش اللي ما يعرفك يجهلك.

أرجوك متزعلش، دموعك غالية علينا، حضرتك قِيمة أدبية كبيرة جدًا.

* نادر رؤوف، يمسح دموعه، وينظر للرجل أبو علي وهو يصرخ ألمًا، وما يحدث له من بعض المحتجزين، قائلًا:

- بالعكس، هذا الرجل دمه خفيف جدًا، وأضحكنى جدًا، وعلى الفطرة، عفوي، وطيّب.

عملت أنا وهو مشهد، لن أنساه طول حياتي، هذا إذا كان في العمر بقية ، وتركوني رجال هذا الحاكم أعيش، أو أخرج حي.

هذا المشهد الكوميدي الواقعي، يدخل تحت مُسمَى الكوميديا السوداء.

مشهد كوميدي حزين، يُضحِك، ويُبكِي على ما وصل اليه هذا الشعب الغلبان، في عهد نظام فاسد، وظالم، ومستبد، ضاعت فيه كرامة المصري، وتم إذلاله، وقهره.

(5)

* ووقفت أنا ووافي نتأمل التخشيبة ، وما يحدث فيها ، ضد الإنسانية و الدين ننظر ونحن في حسرة وألم ، وحُزن كبير وصَمْت.

قررت أن أكسر حاجز الصمت و الحزن، حتى لا نشعر بالتعب من الوقفة على قدمينا طول الليل، وياريت واقفين براحتنا، إنما واقفين محشورين.

وشعرت بالإرهاق ، و الجوع ، و العطش ، والحسرة ، والألم وقلب موجوع ، قلب مريض ، وحزين ، قلب يبكي ، ويصرخ قهرًا.

لذا قررت أن أكسر حاجز الصمت و الحزن ، وأعاود حديثي مع وافي مرة أخرى ، قائلًا:

– مهندس وافي ، أنا سعيد جدًا بمعرفتك ، أنت شاب جميل ، ومثالي ومثقف ،ومتعلم ، ومهذب ، ومثال رائع للشباب المصري.

لكن إلى الآن لم تقل لي عن سبب وجودك هنا ، أنت هنا ليه ؟

* نظر لي وافي بحزن، وصمت ، ولم يرد عليَّ.

ولم أيأس ، وعاودت حديثي معه مرة أخرى قائلًا له:

- على فكرة أنا باحترم حياتك الخاصة، ولكن باطمع ، وأتمنى تعتبرني أخوك ، أو صديقك ،وتفتح لي قلبك، أكيد هاعرف أساعدك ونكسر حاجز الملل بهذه التخشيبة المميتة.

* وافي ينظر لنادر رؤوف بإبتسامة حزينة ، وإعجاب وتقدير ، قائلًا له:

- أستاذ نادر ، حضرتك أستاذي ، ومثلي الأعلى ، وقامة عالية وشرف كبير لي ، إني أكون أخوك ، أو صديقك ، أو تلميذك.

لقاؤك ، وكلامي معك ، كان حلم لي من زمن ، وظلَّ يراودني وتحقق لي أخيرًا.

ولكن اعذرني، للأسف، حكايتي صعب تتحكي ، ولا تتكتب ، ولا تتنشر.

حكايتى سِر ، وممنوع يتقال ، سر هيتدفن معايا.

- أنت هنا ليه ، نفسي أعرف ، سبب وجودك هنا ، أرجوك.

وافي تنساب دموعه ، وينظر بصمت حزين ، ثم يضع رأسه بالأرض خجلًا قائلًا:

- أنا هنا، لأنى قاتِل.

* كان رد فعل نادر رؤوف ، الصمت ، و المفاجأة والدهشة ، لم يستوعب ما قاله وافي وبعد لحظات عاد وسأله تأكيدًا،

- أنت بتقول أيه ، قتلت ، أنت تقتل ، قتلت أيه !

* يرد وافي بحزن ووجهه بالأرض خجلًا وإنكسارًا.

- قتلت روح ، قتلت إنسان.

- قتلت ، إنسان ، أكيد قتْل خطأ ، بدون قصد ، غصب عنّك ، خطأ صح...صح

- للأسف ، قتلت مع سبق الإصرار والترصُّد.

- معقول يا وافي ، أنت تقتل إنسان.

- لا لم أقتل إنسان ، إنما قتلت شيطان.

- أعذرني مش فاهم قصدك ، فهّمني.

- قتلت شيطان في صورة إنسان ، شيطان يعيث بالأرض فسادًا وأصبحت قاتِل ، مُجرم ، في نظر المجتمع والناس ، والقانون.

* أصاب اعتراف وافي ،نادر بالصدمة ،و المفاجأة ،والذهول والصمت.

وبعد لحظات تحدّث مع وافي بنبرة هادئة وحزينة ، وهو لا يصدق ما يسمع قائلًا له:

- معقول ، معقول ، أنت يا وافي تقتل.

أنا لا أصدق ما تقول ، تقتل ، تقتل ليه ؟

– هذا نصيبي ، وقدري يأستاذ نادر.

– أكيد قتل خطأ ، قوللي قتلت خطأ ، ماكنش قصدك.

– للأسف لا ، من غير أسف.

أنا قاتل ، زَهَقت روح مع سَبْق الإصرار و الترصُّد ، قتْل عَمْد وأنا في كامل قواي العقلية ،ولست نادم على قتله.

لكن أنا مش مجرم ، ولو رجع بي الزمن هقتله أهقتله بدون تردد.

* نادر رؤوف ينظر لـ وافي ، ولا يصدق ما يسمع منه حزين ، في ذهول ،ويقترب من وجهه ، ودموع وافي ، وجهًا لوجه قائلًا وهويحاول أن يمسك دموعه.

– أنا مش قادر أصدّق ما تقول ، وتعترف به ، أنت قاتل ، قاتل.

كيف يقتل هذا الوجه البريء ، المثقف ، المؤمن ، المُسالم ، ابن الناس الطيبين.

ما الذى دفعك للقتل ، قتلته ليه ،أيه السبب ، ومن هذا ؟

أنت لا شكلك ولا تربيتك ،ولا ثقافتك ، وعلمك ،ولا مركزك وأخلاقك تقتل..ولا يمكن تكون قاتل مجرم.

أرجوك اتكلم يا وافي ، ما الذي دفعك لقتله..

اتكلم خليني أعرف أساعدك ، نحن أصدقاء واخوات.

* لم يرُد وافي ، وظل صامت شارِد ، حزين ، تنساب دموعه بصمت في حالة نفسية سيئة جدًا.

مرت دقائق كأنها دهر ، وليل طويل ، وحُزن كبير، وسر دفين وصرخات صامتة.

لم أتكلم ، وظللت صامتًا ، أُتابع وافي ، وأنظر إليه بحُزن.

دموعه تنساب كالنار، ودقات قلبه تصرخ ، صرخات تهز جدران التخشيبة ألمًا ، وحزنًا.

وفجأة كسَر وافي حاجز الصمت ، وقال لي بحزن وخَجَل:

- أستاذ نادر ، للأسف الشديد أنا ممنوع من الكلام ، وراضي بحكُم الله وقدره.

- ومين اللي منعك ، قوللي ماتخافش ، أنا معاك ، جنبك.

- أستاذي العزيز، حكايتي ممنوعة، ممنوع تتقال، ولا تتحكي، ولا تتنشر، بارادتي.

سِر ولازم يدفن ويموت معايا ، خلاص خِلص الكلام ومات وأنتهى كل شيء.

راح مستقبلي ، وضاعت حياتي ، وفقدت قلبي ، وحبي الوحيد.

وغدًا عندما تشرق شمس الصباح وأذهب للنيابة ، سأعترف بجريمتي ، بقتلي لشيطان.

ومن الآن سأكون في انتظار حُكم الإعدام ،الموت ، الفناء، ومغادرة الحياة بإرادتى.

وسأسعى إليه...الموت.

* ولم يتمالك نادر رؤوف أحزانه ،وانسابت دموعه ، وأخذ وافي بحضنه وظلا يبكيان.

نادر رؤوف يمسح دموع وافي ، قائلًا له ويرجوه:

- أرجوك يا وافي اتكلم.

- لو بتحبني لا تساعدني ، ولا تتدخل في هذه القضية.

- ليه ، ليه بتقول كده.

- عشان أنا عاوز كده ،راحتي في كده ، الأعدام هو راحتي،عشان أرتاح ، وترتاح أسرتي ، وتنزل عليّ ستائر النسيان كلما مرت الأيام، لكن وجودي بالسجن ألم لي ، ولأسرتي ، سنين طويلة.

- أرجوك يا وافي ، اتكلم....

- للأسف خلاص ، سِكت الكلام ، أعذرني.

* وسكَت وافي عن الكلام ، وارتعشت يداه ، وانسابت دموعه وعاد لشروده.

- وحاولتُ جاهدًا أن أهدِّيه ، وأخرِجه من صمته ، وفشَلْت.

وظلّ طوال الليل صامتًا، وجسده يرتعش ، وقلبه يصرخ ، وعينيه تبكي.

- حاولت أن أخفف من أحزانه ، بقراءة القرآن له ، بين الحين والآخر.

- كان عندي إيمان أكيد وراسخ ، أن وافي بريء ، وأكيد هناك أسباب خارجة عن إرادته ، أسباب قهريّة ، جعلته يقتل.

(6)

* وأشرقت شمس الصباح التي لا تدخل تخشيبة الحكومة.

واتصَلْت بأحد الأصدقاء ، ليحضر لي ملابس جديدة ، وحذاء، ومشط شعر.

- وأتى رجال الشرطة صباحًا ، وأخذوا وافي منفردًا وَسَط حراسة مشددة.

* وذهَبتُ أنا بعد ذلك مع مجموعة من المحجوزين للنيابة، وكان في إنتظاري المحامي الخاص بي ، وبسرعة عمل معارضة وخرَجت، وعلِمت من المحامى ، أن سبب القبض عليَّ حُكمًا غيابيًا بالحَبْس عام.

هناك شخص لا أعرفه قدّم إيصال أمانة بقيمة مائة ألف جنيه واختفى، وطبعًا كانت هذه مؤامرة من المسئولين بالحكومة ، لإرهابي وإسكاتي وبهدلتي بالتخشيبة ، وإهانتي أمام أمي و الجيران.

* خرَجْت من القسم ، وكانت صدمتي الكبرى ، لم أجد أمي ، ماتت ،ماتت أمي خوفًا عليَّ ، ماتت أمي بحسرتها ، وحزنها على ما جرى لابنها.

الحكومة قتلت أمي ، ودمرت حياتي.

ماتت أمي بالمستشفى ، لم تتحمل ما حدث لابنها أمامها ، ولم يتحمل جسدها الضعيف.

وقمت بدفن أمي بيدي ، لترقد بجانب أولادها وزوجها، لأعيش وحيد ، أعيش حزين ، أعيش على الذكريات ، والدموع.

ماتت أمي ، ليموت معها كل شيء.

ويشتد بي المرض ، ويوجعني قلبي وجع شديد ، وأستسلم للمرض والموت.

* وتتدهور حالتي الصحية يوم بعد يوم ، ويشتد بي الحزن و الألم.

ويأْمر الأطباء بسرعة سفري للخارج للعلاج ، وعمل عملية خطيرة بالقلب.

وقبل سفري كلّفت المحامي الخاص بي بالدفاع عن وافي ، وتبنّي قضيته.

(7)

* وسافرت لـ فرنسا للعلاج ، وعملت عملية بقلبي الموجوع و الحزين.

سافرت فرنسا ، بلد النور ، و الحرية ، و الثقافة ، و التاريخ

و الديمقراطية على رأي أستاذنا الكبير « طه حسين «.

سافرت لبلد تحترم الإنسان و الحيوان.

سافرت لفرنسا أحمل قلبي الموجوع من النظام الظالم ، الفاسد.

ومرّت سبعة أشهر بعيد عن وطني ،وأهل بلدي.

ولكن كنت أتواصل مع شباب مصر عَبْر شبكة التواصل الاجتماعي.

وكنت أتابع أخبار بلدي عبْر القنوات الفضائية سواء العالمية أو المحلية.

* وأتابع أخبار وافي من المحامي الخاص بي ، لم أنسَ طوال فترة سفري وافي ذلك الشاب الهاديء ، المثقف ، الحزين ، الوسيم وإيماني ببرائته برغم اعترافه.

ومرت الأيام والأيام ، وفي يوم حزين ، صُدِمت على خبر إعدام وافي حُكِم عليه بالإعدام شنقًا برغبته ، وعَدَم الدفاع عن نفسه ومساعدة المحامين للدفاع عنه.

وظل صامت، لا يتكلم، مُعترف بجريمته، لرغبته في الخروج من الحياة.

ليتم تنفيذ حكم الأعدام ، ليموت ويرحل ذلك المهذب، الجميل.

مات وافي ، لتنتهي حياته نهاية حزينة ، ومؤلمة ، وغامضة.

مات ، ودُفِن سره معه ، ليترك ذكرى حزينة لقلبي ، لشاب جميل في كل شيء.

* وتمر الأيام و الشهور بطيئة، مع العلاج، علاج قلبي.

وعُدت لأرض الوطن بعد رحلة علاج طويلة وشاقّة مع الألم والمرض.

عُدت لوطني بعد أن كتب الله لي الحياة مرة أخرى، ونجاح العملية وعاد قلبي يدق.

* وما أن وَطَأت قدماي أرض الوطن، حتى شعرت أن روحي رُدَت وعادت لي.

لاتسألني لماذا هذه الفرحة والسعادة لعودتي لوطني، برغم كل ما فيه من زحام وتلوث، وفساد، وظلم، وهمجية، ونِفاق، وجُبن، وفقر واستبداد.

ولكن مازال في بلدي ناس طيبين، وشوراع عريقة، وأرض طيبة وقرآن وإنجيل، بلدي فيها حاجات كتيرة حلوة، وفيها حاجات كتيرة وحشة، لكن بحبها.

* وعدت لشقتي، شقة أسرتي.. ولم يكن أحد في استقبالي سوى الكرسي المتحرك الخاص بأمي الله يرحمها، ليذكّرني بها وبحضنها، وطيبة قلبها، وحنانها.

جلَست في الشقة وحيدًا، بعد أن رحلوا جميعًا، وتركوني وحدي مع الذكريات.

تذكرت أخواتي البنات، وذكرياتي معهم.

تذكرت أبي، وهو يصلي بينا إمامًا، وصوته الرائع وهو يتلو أيات الذِّكر الحكيم ، وكلماته لي، وحبه لنا.

وتذكَّرت أمي، أعظم.. وأحن، وأطيب أم في الدنيا كلها.

تذكرتهم جميعًا، وذكرياتي معهم، وأحلى أيام عمري، وحشوني وظللت ابكي من مرارة الفِراق.

وعُدت لسريري لأنام نَوم عميق.

(8)

* ونِمت نوم عميق، ولم أستيقظ إلَّا في اليوم التالي.

استيقظت على صوت جرس باب الشقة، ونهضت مسرعًا من سريري.

وذهبت أفتح باب الشقة، وأنا أسأل نفسي، من الطارق ؟

وفتحت باب الشقة لأجد أمامي ضابط شرطة شاب يقف بمفرده.

أُصِبت بالدهشة والخوف، والخضّة، خوفًا من ذهابى للتخشيبة المميتة مرة أخرى، وبدأ يساورني الشك، والقلق، والرّهبة، والصمت.

* وأزالت إبتسامة الضابط الشاب الفزَع، والرّهبة في نفسي،وهو يعتذر لي بأدب جَم، وأخلاق عالية، وذوق ورِقّة، قائلًا:

- آسف ياأستاذنا، لحضوري في هذا الوقت المبكر، بدون سابق معاد،وعُذري الوحيد أني ليس لدي تليفون حضرتك.

لذلك أرجو المعذرة، وقبول اعتذاري، وأسفى الشديد.

* سحرني هذا الضابط الشاب الرقيق، المهذب، بأسلوبه، وأخلاقه وأدبه.

لذا رحبت به، بكل الحب والتقدير، والاحترام.

وأستقبلته بغرفة مكتبي، وأنا سعيد بمعرفته، ولقائي مع نموذج رائع لضابط الشرطة ورجال الشرطة، وكثيرًا منهم مُحبين لهذا الوطن وشعبه، وأرضه ولم يضيع وقت، وعاود حديثه معي قائلًا:

- أحب أعرفك بنفسي...

أنا(رفيق عادل بطرس) ضابط برتبة نقيب بمصلحة السجون وأنا من أشد المعجبين برواياتك، وكل أعمالك الأدبية وسعيد كل السعادة بمقابلتي لحضرتك، شرف كبير وعظيم لي.

على فكرة، سبق وأن حضرت لسيادتك مرات عديدة، وللأسف لم يسعدني الحظ بمقابلتك، لوجودك خارج الوطن للعلاج ، كم دعوت الربّ أن يشفيك ويعيدك لنا سالمًا، ومُعافًا.

والحمد لله أستجاب الله لي، ولـ آلاف من قُرائك، ومُريديك.

* يعلم الله كم كانت سعادتي، بمديح وثناء هذا الشاب لي.

إن الضابط رفيق نموذج رائع وجميل لضابط الشرطة، ولرجال الأمن.

وشكرته على أدبه، وأخلاقه العالية، وأسلوبه الراقي في الحديث.

هذا هو رجل الأمن المصري، وضابط الشرطة المصري.

* وعاود الضابط حديثه معي قائلًا بحزن وتأثُّر:

- أنا لن آخذ من وقت حضرتك كثير، حضوري اليوم، وفي هذا التوقيت لأمرٍ هام جدًا، ولا يحتمل التأخير، لأنها وصية واجبة.

- وصية، وصية أيه !

- هي مش وصية بالضبط، ولكن أمانة، الأمانة التي معي هي رسالة، رسالة أوصاني بها شاب جميل في كل شيء، ورائع ومهذب، ومثقف، ومؤمن، وشجاع، وبيحبك جدًا، وأنت مثلُه الأعلى.

* أحسست بفخر، وعزة نفس، ورديت بسعادة على الضابط.

- لا أستطيع أن أصف لك ياحضرة الضابط مدى شعوري وسعادتي كلما أجد شاب معجب بكتاباتي، ومقالاتي، مصر بخير بالجيل القادم، جيل المعرفة، والتغيير.

وأتشرف برسالته، وبمعرفة هذا الشاب، وصداقته، ياترى مين هو..

* يرد الضابط بحزن:

- للأسف، هذا الشاب الذي أوصاني، أصبح الآن في العالم الآخر.

توفاه الله، وقبل وفاته بدقائق أوصاني بتسليم هذه الرسالة لحضرتك.

- ومن صاحب هذه الرسالة، أصبحت في شوق لمعرفته، ياترى من هو، اسمه أيه؟

- اسمه المهندس «وافي الهادي الطيب»، تعرفه حضرتك...

* لم أتمالك نفسي، ولا دموعي، أنسابت بدون توقف، قائلًا له بحزن:

- نعم أعرفه، أنه صديقي(وافي)

أعرفه ولي الشرف، والاعتزاز، والفخر، والتقدير بمعرفته.

وافي ذلك الشاب الجميل، المثقف، عرفته بالتخشيبة، في ظروف صعبة، لي وله، ظروف سيئة، ومؤلمة.

ونظر لي الضابط الشاب بدهشة، وهو لا يصدق ما أقوله.. ويسألني..

- حضرتك كنت محجوز بالتخشيبة، ليه.

- ورديت بسرعة مدافعًا عن نفسي من نظرات الضابط لي.

- أنا لم أكن محجوز بالتخشيبة، بشيء يمس الشرف، أو خيانة أمانة، أو مخالفتي للقانون، أو عمل إجرامي، أو إرهابي.

جُرمي هو قَوْل الحق، ومحاربة الفساد، والدفاع عن الفقراء والمظلومين.

تم تلفيق تهمة لي، بتقديم شخص مجهول إيصال أمانة مزور ضدي ويختفي بعد ذلك، ويتم الحكم عليَّ غيابيًا، بدون أن أدري، أو أعرف.

ويتم القبض عليَّ بطريقة مهينة.

ويتم إيداعي بتخشيبة الموت، و القذارة، والعفانة، والوباء.

تخشيبة لا تصلح للحيوان، تخشيبة إهـدار كرامة المصريين وقهرهم.

وطبعًا حضرتك كضابط تعلم ما هى التخشيبة ، وما يدور ويحدث فيها.

أُهدِرت كرامتي، وإنسانيتي، داخل هذه المقبرة، قصدي التخشيبة.

وعندما خرجت منها حي بأعجوبة، وقوة تحمُّل، وصبر، خرجت ولم أجد أمي، ماتت حسرة عليّ، وعلى ما جرى لي من إهانة أمامها، وخوفها عليَّ، ماتت واتحَرَمت منها.

أليس من العدل ياحضرة الضابط، إبلاغ المحكوم عليهم غيابيًا.

إبلاغهم هاتفيًا، أو عن طريق sms، أو إخطارهم بريديًا، أو شفهيًا ، بأى وسيلة، أو عن طريق قسم الشرطة التابع له.

* الضابط رفيق ينظر لنادر رؤوف بتأثُّر وحزن، وخجل ويرد بأدب وأخلاق عالية قائلًا:

- أنا أسف ياأستاذ نادر على كل ما حدث لك، وألف رحمة على الست والدتك، عزائي لك، ربنا يصبرك.

وأعِدُك أن أقِّدم هذا الأقتراح للمسئولين بالدولة، وإن شاء الله يكون محل بحث، وتقدير.

* أسمح لي يا أستاذنا،أعود بالحديث عن المهندس وافي.

كان سجين فريد من نوعه ، في أدبه، وأخلاقه، وعلمه، وثقافته وإيمانه، وهدوئه، مثال رائع لم أقابله من قبل.

نموذج يُحتذَى به، صعب تِكراره، ولم أصدق إنه قاتل إلى الآن.

كان مُقبل على الموت بنفسٍ راضيةٍ مطمئنةٍ، ذاهب للموت، ولحبل المشنقة بهدوء، وبراحة، وسعادة، هكذا كانت حالته قبل تنفيذ حكم الأعدام فيه.

ومودعًا لكل من حوله، بابتسامة، وسلام.

وقبل أن يتم تنفيذ حكم الأعدام فيه، أوصاني بتسليم هذه الرسالة لك.

(9)

* وتركني الضابط الشاب الخَلوق المهذب مع رسالة وافي.

وجلست بمكتبي، أقرأ الرسالة وأشم رائحة وافي فيها، رائحة كلها حزن، وألم، وفراق الأحباب.

وكنت أسمع صوته الهاديء، وأرى وجهه البريء، الحزين في رسالته.

وهو يقول لي قبل رحيله:

– أستاذي، وأستاذ الجيل، ومثَلي الأعلي، ومن علمني الحب.

ومن أثَّر في وجداني، أستاذي «نادر رؤوف».

تحية وتقدير واعتزازي بشخصكم الكريم، وبعد...

* أكتب إليك رسالتي الأخيرة، قبل تنفيذ حُكم الإعدام شنقًا.

اكتب إليك قبل الرحيل، الرحيل للعالم الآخر.

وكانت أمنيتي الوحيدة قبل إعدامي، أن أراك، ولم يسعدني الحظ لسفرك ولذلك كتبت إليك هذه الرسالة، لتكون آخر كلماتي في الحياة لك، قبل انتقالي للعالم الآخر، عالم ليس فيه ظلم.

* أستاذي عندما تصلك هذه الرسالة، أكون قد دُفِنت تحت الثرى.

دُفِنت تحت الأرض، وتم حبسي بمقبرة صغيرة، مظلمة، وحدي.

وأُغلقت عليَّ الأحجار، ورُدِمت بالتراب، وأصبَحْت ذكرى في عالم النسيان.

* أكتب لك رسالتي الأخيرة، قبل وداع الحياة، والناس، قبل إعدامي.

أكتب لك لأني آمنت بك، بأنك آخر رُسل الحب.

علمتنا الحب في رواياتك، وحب الوطن من مقالاتك، ودفاعك عن المظلومين والفقراء و المقهورين، والشباب فكنت لسانهم والمعبر عن حقوقهم.

لذلك أخترتك لتكون صديقي، وأستاذي من زمن طويل.

بالرغم من كونك لا تعرفني، كنت أقرب واحد لي.

* وكان حلم حياتي القصيرة أن أقابلك، وأتكلم معك، واستمع لك.

ولم أكن أتصور أن يتحقق حلمي، وأقابلك، وأكلمك.

وتحقق حلمي، قبل أن أرحل عن هذه الحياة.

ويعلم الله كم كنت سعيدًا بمقابلتك، وحديثي معك، بالرغم من حالة الحزن، والاكتئاب، واليأس التي كنت عليها.

وللأسف قابلتك بعد أن ضاع مني كل شيء ، الحب، والحياة والمستقبل، قابلتك وأنا باودّع الحياة، راحل عن الدنيا، ذاهب للموت بإرادتي.

وللأسف لم استطيع التحدث معك، نظرًا لظروفي النفسية التي كنت أمرُّ بها،وكانت أمنيتي أدافع عن نفسي، وأُبرّئها أمامك، وأبوح لك بسرّي.

* والأن بعد أن أنتهت حياتي، ودُفِن سري معي، في هذه المقبرة المظلمة، وأصبَحْت بالعالم الآخر، وبعد شهور، أو سنين، سأصبح ذكرى، ذكرى حزينة، ومؤلمة، وأُصبح في طي النسيان، سأُظهِر لك الحق، وأُبرّيء نفسي، بعد أن رحلت، وأصبحت في دار الحق.

ولكن قبل أن أبوح لك بسرّي، أستحلفك بالله، أوعدني، أوعدني لا تظهر براءتي لأحد، حتى ولو كان أقرب الناس لي، خاصةً أبي وأخواتي.

هذه وصيتي لك، وصية شاب ضحى بعمره، ومستقبله، وأحلامه وحبه، من أجل هذا السر، ووصية الميت واجبة ياأستاذي العزيز.

وأنا أثق في نُبلَك وأخلاقك، وستكون أنت الإنسان الوحيد الذي يعرف سرّي.

(10)

* تبدأ حكايتي، أو مأساتي، بأحدى الأحياء الشعبية، حيث نسكن أنا وأسرتي.

نسكن بحي عشوائي من ضمن العشرات من الأحياء العشوائية التي بُنيَت في عصر الفرعون على أجود الأراضي الزراعية، في ظل إهمال الدولة، لعدم بناء أي مجتمعات عمرانية جديدة للشعب والشباب الغلبان.

* وكنت أنا وأسرتي نسكن بأحدى هذه المناطق الشعبية والعشوائية، نسكن بحارة عرضها خمسة أمتار، وبمنزل متواضع، وشقة بسيطة في كل شيء.

شقة بسيطة في آثاثها، وفي سكانها، وفي صِغَر حجمها.

ولكن كنا نعيش أسرة مترابطة، ومتحابة، راضية، وسعيدة، بالرغم من أننا كنا نعيش حياة متوسطة.

* فأبي أطال الله عمره، أستاذ لغة عربية بأحدى المدارس الحكومية بالحي.

أبي خريج جامعة الازهر، تلك الجامعة العريقة، منارة الإسلام والمسلمين والعلم، وتخرج على يد أبي، المئات أجيال، وأجيال.

كان ولازال أبي نموذج فريد، لا يبخل بعلمه على تلاميذه، في أي زمان، وأي مكان.

لا يعطي دروس خصوصية، لا يعطي دروس بمُقابِل مادي.

يعطي دروس بالمجّان، بمجموعات التقوية بالمساجد، والكنائس نعم و الكنائس.

أبي نموذج رائع لرجل العلم في العطاء، وغزارة علمه، وحبه لتلاميذه.

أبي مربي فاضل، وعظيم، ومثالي، في زمن عصابات الدروس الخصوصية، والأسعار الخيالية للمواد الدراسية، التي أصابت كل الأسر المصرية بمَقتل، وهَمٍ، وغَمٍ.

* بالإضافة لكَون أبي مُعلم فاضل، ومربي أجيال،

كان أبي شيخ وخطيب مسجد الحي، يؤثِّر في وجدان كل من يسمعه لبلاغته، وغزارة علمه، وبساطته، وحب الناس له، لتواضعه وزهده، وأخلاقه.

وهب أبي حياته للعلم ،والدين، والناس، وخدمة أهالي الحي ومساعدتهم وحل مشاكلهم المادية، والاجتماعية.

* كان مسجد الحي، الذي يرأس جمعيته أبي (جمعية الخير).

قِبلَة كل محتاج، قِبلَة الفقراء، و الأرامل، والأيتام، والمرضى وزواج بنات الأيتام و الفقراء.

أنشأ أبي هذه الجمعية بالجهود الذاتية، وبها أنشطة مختلفة.

عيادات طبية بأجر رمزي، وقاعة للمناسبات، وقاعة للدروس الخصوصية بالمجان، و أنشطة مختلفة، رعاية المسنين، ورعاية أهالي وأسر المسجونين، وأطفال الشوارع.

جعل أبي مسجد الحي، مؤسسة خيرية كبرى لأهالي الحي والأحياء المجاورة بفضل تبرعات رجال الأعمال، وأهل الخير وثقتهم في أبي.

* كانت حياتنا حياة متوسطة، ويمكن أقل من المتوسطة، وبرغم ذلك كانت حياتنا سعيدة، قانعين راضين بفضل تربية أبي وأمي لنا.

كنت أنا وأخواتي البنات كلنا فخر وسعادة، وعِزّة.

لأننا أولاد الأستاذ العظيم، والشيخ الجليل «الهادي الطيب».

كان أبي اسم على مسمى، هادي وطيب، محبوب من كل الناس.

يُرحَب بنا في أي مكان، لمجرد علمهم أننا أولاد الشيخ الهادي الطيب أطال الله عمره، والحمد لله اتربينا في أسرة طيبة.

اتربينا على حب الخير، وحب الناس، وحب الوطن، وحب العلم فكنت من المتفوقين دائمًا، أنا وأخواتي.

أنا أكبر أخواتي، تخرجت من كلية الهندسه بتقدير جيد جدًا.

- اسمح لي أستاذي العزيز أعرفك بأسرتي الكريمة...

* والدي كما ذكرت لك من قبل يعمل مدرسًا، وإمام مسجد الحي ورئيس جمعية الخير.

أما أمي ست الحبايب، فهي خريجة كلية الخدمة الاجتماعية، لا تعمل.

فهي ست بيت، وأم فاضلة، وحنونة، وطيبة، ومثقفة.

فضّلت أمي أن تكون حياتها وعمرها لزوجها وأولادها، واستقالت من وظيفتها.

ولي ثلاثة أخوات بنات، جميلات، وهم على الترتيب:

* أختي (فريدة) طالبة بالسنة النهائية بكلية الإعلام، وستكون إن شاء الله مذيعة.

* وأختي الوسطى (سلمى)، وهي طالبة بكلية الألسن، قسم لغة فرنسية.

* وأختي الصغرى (مريم)، وهي طالبة بالمرحلة الثانوية، وتريد أن تكون دكتورة أطفال، فهي تحب الأطفال جداً جداً.

هذه هي كل أسرتي، أسرة كلها حب، وسعادة، وتفاهم، وإيمان.

وللأسف لم تدُم هذه السعادة طويلًا.

فقد ماتت أمي بعد إصابتها بفيروس الكبد الوبائي.

ماتت أمي لعدم وجود رعاية صحية للمواطن المصري في وطنه في عهد الفرعون العجوز،أصيبت أمي بهذا المرض اللعين، كمئات الآلاف من الشعب.

ماتت أمي في وطن رُفِع فيه مسئولية شِعار الموت للفقراء والشرفاء، وأصحاب الرأي.

ماتت أمي في وطن أرخص ما فيه مواطنيه.

وطن رَفَع فيه حاكمه شعار إبادة شعب، بتلويث كل شئ حوله.

تلويث ماءه، وغذائه، وهوائه، وعقله، وجسده، وزرعه.

حتى أصبحت مصر من أوائل الدول المصابة بفيروس الكبد الوبائي.

* وبموت أمي، خيّم الحزن على أسرتنا، وأنطفئت الأنوار، وسكت الكلام، وغابت الشمس، وعمّ السكون شقتنا الصغيرة.

وكان حزن أبي حزن كبير، حزن عظيم على حب عمره ، ورفيقة ضربه، وأم أولاده، وشريكة حياته.

وخيّم الحزن علينا جميعًا أيام، وليالي طويلة.

لولا حكمة أبي، وصبره، وإيمانه، ما خرجنا من أحزاننا ،وأنهار كل شيء حولنا فأصبح أبي لنا كل شيء، الأب، الأم، والصديق والمعلم.

كان أبي يرسم البسمة على وجهه، وقلبه يبكي على فراق أمي عِشرة عمره وحبه الأول و الأخير، ورفيقة كفاحه.

ومن حظي السيء، توفت أمي قبل ظهور النتيجة، وأصبحت مهندس.

أصبحت مهندس كما كانت تحلم أمي.

وللأسف تحقق حلمها بعد وفاتها بأيام، لذا لم يكن لنجاحي طعم، أو فرحة.

* منذ طفولتي وأنا مرتبط نفسيًا ووجدنيًا، وعاطفيًا، بابنة خالي «ولاء».

حبي الأول و الأخير، حب عمري كله.. وأجمل قصة حب عرفتها وعشتها أيام وشهور وسنين طويلة.

كانت كل العيلة تبارك هذا الحب الطاهر الشريف.

كان حبي لـ «ولاء» قائم على الاحترام، والتقدير، حب طاهر، نقي، حب كله إيمان، ووفاء، وطموح، وحلم كبير يكون لنا عش صغير يجمعني أنا وحب عمري (ولاء)

عشت أحلى أيام حياتي معاها، عرفت الحب وحلاوته مع ولاء.

كنا روح واحدة في الفكر، والروح ،والحب، والطموح.

لا نفارق بعض أبدًا، دائمًا مع بعض، كانت أحلامنا بلا حدود، نحلم، ونحلم حتى اقترب حلمنا من الحقيقة.

وتخرجت من كلية الهندسة، وولاء من كلية التربية.

* وبفضل الله، وحب الناس لوالدي، تم تعيني بأحدى شركات المقاولات الكبرى.

واتعينت ولاء مدرسة بأحدى المدارس الخاصة.

كنت مهندس مجتهد، أحب عملي، أعمل ليل نهار بكل إخلاص وحب لكي أحقق حلمي بالزواج من ولاء.

وكنت محل احترام وتقدير رؤسائي في العمل، والحمد لله.

(11)

* وذات يوم وأنا أصلي خلف والدي، صلاة العشاء، في ليلة صيف ساخنة.

أثار دهشتي رجل يصلي بجانبي، بنظراته لي بين الحين والآخر أثناء الصلاة.

ينظر لي بتأمل شديد، وبسمة غريبة، رجل غريب لم أره من قبل.

وبعد الانتهاء من صلاة العشاء، فوجئت بالرجل الغريب يصافحني بحرارة وسعادة، كأنه يعرفني من سنين.

وجلست أستمع باهتمام وإنصات لخطبة العشاء القصيرة التي يلقيها والدي.

وظل الرجل الغريب ينظر لي بابتسامة عريضة، ولا يتابع الخطبة وكنت في دهشة وخجل من نظراته لي.

* وبعد وقت قصير أنتهى والدي من خطبة العشاء، وبسرعة أقترب منّي الرجل الغريب بفرحة كبيرة، قائلًا لي:

أنا فرحان جدًا.. أني شوفتك، أخيرًا تحقق حلمي، وقابلتك...

أنت واحشني جدًا، تسمح لي ياابني أحضنك.. أنا مشتاق ليك جدًا.

لم أرد.. ولم أتكلم.. كنت في ذهول، وحيرة.. من تصرفات ذلك الرجل.

وإذا به يأخذني بالأحضان، والقبلات.. وهو يبكي فرحًا.

ومن بعيد ينظر لي أبي بدهشة، وعيناه تسألني من ذلك الرجل !

وأجبته بعيني لا أعلم.

وبعد لحظات من الأحضان و القبلات، يمسح الرجل عينيه من الدموع.

وينظر لي باشتياق وحنين، وبعد لحظات من الصمت...

نظر لي الرجل، قائلًا:

- أنا أريد التحدث لك في موضوع مهم جدًا، موضوع مصيري بالنسبه لي ولك.

* أثارت كلمات الرجل دهشتي، وتصرفاته معي بالرّيبة و القلق

وبدون شعور وجدت نفسي أسأله بدهشة...

- حضرتك تعرفني.

* يرد الرجل بثقة وثبات نفسي، يُحسَد عليه.

- طبعًا أعرفك، أعرفك من سنين طويلة، من قبل ما تتولد.

كان رد الرجل غريب، وأسلوبه بالحديث غير مريح لي، جعلني أسأله بغضب أنت مين ؟

- أنا واحد قريب منك جداً، أقرب لك من حبل الوريد.

أنا الدم اللي بيجري في عروقك، أقرب واحد ليك في الدنيا.

- قريب مني، من أي جهة، من ناحية أمي، والا والدي.

- أنا قُربي منك مش من ناحية أمك.. ولا أبوك.

أنا قربي ليك أقوى منهم، لأنك حتة مني، نسختي في الأرض.

- كلامك كله ألغاز، وشوّقني لمعرفة حضرتك، حضرتك مين...

أوعى تكون كاميرا خفيّة ومقلب.

* يضحك الرجل ضحكة صفراء، ويرد بهدوء وثبات انفعالي...

- عندما تأتى معي، وتسمعني هتعرف كل حاجة، هتعرف الحقيقة الغائبة عنك.

وتعرف أنا مين، أنا سر السنين.

- آجي معاك فين، اتكلم هنا بالمسجد.

- للأسف ما ينفعش، كلامي مهم وخطير، ما ينفعش يتقال في المسجد ولا الحارة ولا الحي كله، لازم نبعد، ونكون لوحدنا.. في مكان هادي.. بعيد عن الناس، متخفش مش هتبعد كتير.

- زي ما تحب، تحب نروح فين...

قريب، في أي مكان على النيل.

* وذهبت لوالدي، وأستأذنت منه، وخرجت مع الرجل الغريب والعجيب، الذي لا أعرف اسمه، ولا شخصيته.

وذهبت مع الرجل الغريب، وخرجنا من الحي لقهوة على النيل بمنطقة الكيت كات.

نظرت للرجل بدهشة، وتعجب، وسألته:

- هو ده المكان الهادي، الخالي من الناس.

- المهم إنه على النيل.

* وجلسنا بركن بالمقهى، بعيدًا عن مدخل المقهى المزدحم بالرواد.

وظل الرجل يدخن الشيشة بشراهة، ويخرج من فمه دخان كثيف.

كأنه شكمان سيارة مخروم، أو سيارة موتورها مفوّت، مما سبب لي ضيق بالصدر.

وظل صامت، لا يتكلم، مما أثار غضبي واستيائي.

وسألته وأنا كلي ضيق وغضب، من صمته، ودخانه الكثيف ونظراته المريبة.

– حضرتك عاوز منّي أيه ! مرَّ وقت كبير ولم تتكلم، أنت جاي تُسمعنِي الصمت.

أنت مين ! وتعرفني منين ! وعاوز منِّي أيه !

* الرجل يأخذ نَفَس عميق من الشيشة، ويخرج دخان كثيف في وجهي قائلًا:

– أنا «سيد ثعلب» يا وافي ياابني.

اعذرني لم أرك من قبل، من يوم ما اتولدت.

ما شاء الله كبرت، وبقيت راجل، ومهندس.

– سامحني في سؤالي، بتقول تعرفني، ولم تراني من قبل، فزورة دي.

– أبدًا مش فزورة ولا حاجة، أنا أعرفك قبل ما تتولد، وتخرج للدنيا.

* وافي يضحك بسخرية قائلًا:

– تعرفنى قبل ما أتولد، وقبل ما أخرج للدنيا، إزاي، عن طريق السونار.

على فكرة كلامك غير مفهوم، وغير منطقي، أكيد حضرتك بتهرج وللأسف، أنا لا أحب هذا النوع من التهريج، تقدر تقوللي يعني أيه تعرفني قبل ما اتولد...

* الرجل ياخذ نفَس عميق، ثم يقول بتأثُّر:

- أعرفك لأنك حتة منِّي، بذرتي الجميلة، إنجازي الوحيد في الدنيا.

* وافي ينظر بغضب لـ سيد ثعلب، ثم ينهض واقفًا يستعد لمغادرة المقهى.

ويمسك به سيد ثعلب، ويرجوه أن يجلس، ويهدىء من توتره.

وافي يعود لجلسته وكله غضب منه، وتحفُّز، ثم يصيح فيه..

- أنت عاوز منِّي أيه ، أنا مااعرفكش، وكلامك غير مريح ويزعجني، ويزيد توتري.

من فضلك لخَّص كلامك، وانجز، وخليك واضح.. وصريح، بدون لف ودوران.

* سيد ثعلب يأخذ نفس عميق، ويخرج من فمه دخان، مما يجعل وافي يكُح بشدة.

ثم يرد بهدوء، وبضحكة صفراء كلها خُبث ولؤم.

- حالًا ياحبيبي هتعرف كل شيء، لا تقلق، ولا تغضب منِّي.

أنا ما صدقت لقيتك، أنت واحشني جدًا، وفرحان أنك رجعت لحضني.

ومستحيل تبعد عني تاني مهما حدث، محدش هيقدر ياخدك منّي هنعيش مع بعض، ونأكل مع بعض، وننام مع بعض.

أنا في أشدّ الحاجة إليك، أنا مش متجوز، عايش لوحدي.

أرجوك يا وافي خليك جنبي، كفاية بعاد سنين طويلة، بعيد عن حضني.

معاك حياتي هتصبح شكل تاني، وطعم تاني.

* كانت كلمات سيد ثعلب، كلمات مُريبة، ولها معاني غير محترمة.

وأكدت لي كلماته أنه راجل غير سوي، رجل شاذ، ونهَرتُه غاضبًا.

- أنت رجل غير سوي، راجل مش محترم، وبصراحة باشك فيك وفي سلوكك يعني أيه قصدك، لما تقوللي ننام مع بعض، وتعيش معايا، وترجع لحضني.

وأنا مش متجوز، وفى أشد الحاجة إليك، ومعاك هارتاح.

على فكرة يؤسفني.. أني أقولك أنك رجل مش كويس.

* سيد ثعلب ينهض من مكانه غاضبًا، ويقف أمام وافي وجهًا لوجه ثم يمسك وجهه بيديه، يتأمله، ثم يهدأ ويقول له ببرود شديد.

- يا سبحان الله، أنت تشبهني تمامًا، نسخة منِّي وأنا في شبابي، مش بقولك حتة منّي.

أنا ياحبيبي مش ممكن هاسيبك أبدًا، أنا بحبك، بحبك جدًا...

* وافي يبعد يد سيد ثعلب عن وجهه بغضب وقوة.

وأدرك وافي أن هذا الرجل شاذ، ومنحرف، وغير طبيعي، وصاح فيه..

– أنت راجل غير طبيعي، راجل مش محترم، راجل شاذ، ابعد عني أفضل لك.

* فوجئت به يثور في وجهي بغضب شديد، وينفي عن نفسه تهمة الشذوذ، قائلًا:

– لا ، لا ، أنا راجل، وابن راجل، وطول عمري راجل.

أنت فهمتني غلط، وفهمت كلامي من شمال، أنا راجل، راجل قوي بدليل أني خلفتك.

أنا أبوك، أبوك الحقيقي، اللي خلفك، وأنت ابني، حتة منّي، فاهم..

* كانت كلمات سيد ثعلب لي، كطلقات الرصاص في رأسي أفقدتني التركيز والإدراك.

كلماته لي كانت مفاجاة، صدمة، جعلتني في ذهول.

وأُصبت بالصدمة و الصمت من كلام هذا المجنون، المعتوه.

وعاود سيد ثعلب حديثه مرة أخرى بكل بجاحة، وهو يدخن الشيشة بلا أي مبالاة، ولا إحساس، وكل رواد المقهى بين الحين و الآخر ينظرون الينا بترقُّب.

– أنا أبوك، فاهم، أنا أبوك، ولازم تحترمني.. أنت ابني، من صُلبي.

أرجوك ياوافي ياابني لا تتركني، أنا محتاجلك، محتاج لوجودك جنبي، محتاجلك.

* كانت كلماته صادمة، أفقدتني الوعي و التركيز والنُّطق، عجز لسانى عن الكلام و الرّد... وتوقّف عقلي عن التفكير تمامًا.

وبعد لحظات من الصدمة والصمت، عُدت لتركيزي مره أخرى.

وأنا أسأل نفسي، ماذا يقول هذا الرجل المجنون، وماذا أفعل معه!

أضربه، لا، من الأفضل أن أترك المقهى فورًا، وبهدوء.

وطوال فترة صمتي، لم يتوقف سيد ثعلب عن الكلام، مؤكدًا أنني ابنه.

ثم نهض يريد أن يأخذني في حضنه، وسط تعاطف كل رواد المقهى معه.

ولم أتمالك أعصابي، وإذا بي بلا شعور، أقذف به على الارض بكل قوة ، و سط ذهول رواد المقهى.

وإذا بـ سيد ثعلب وهو مرمي على الارض، يبكي بدموع كاذبة قائلًا:

- بالذمة والدين فيه ابن يعمل كده في أبوه، أنت ابن عاق، عاق بتضرب أبوك.

* ويتعاطف معه رواد المقهى، ويساعدونه على النهوض، ويجلسوه على كرسيه وهو جالس يوجه كلامه لرواد المقهى وهو يبكي بدموع التماسيح، قائلًا:

- ابني بيضربني عشان عاوزه يعيش معايا، بيضربني عشان عاوز أخده بحضني.

هي الدنيا جرى فيها أيه، الأبن بيسب أبوه، ويضربه، عليه العوض ومنه العوض، هي أمك علمتك كده.

وقبل أن يكمل كلامه على أمي، فاجأته بـ لكمة قوية طرحته أرضاً، ينزف الدم من فمه ، وأنا في ثورة أحذره بغضب وأسبه.

- أخرس، أخرس.. ياكلب ، إياك تجيب سيرة أمي على لسانك القذر هذا.

إلَّا أمي أقتلك، أقتلك ياكلب.

لولا أنك راجل كبير، كنت مسحت بيك الأرض.

أنت راجل قذر، قليل الأدب، مجنون وعايز تتربى.

* وبسرعة، وفي لمح البصر، تجمَّع حولي كل رواد المقهى وطرحوني أرضًا وفين يوجعك.

وبالأرجل والأيدي، وبالماء الساخن و البارد، وجميع المشاريب ضربًا بدون رحمة، وسِباب بكل انواع الشتائم.

وإذا بهم يمسكون بي بالأرجل والأيـدي، ويقذفون بي خارج المقهى بعَرْض الشارع.

وكل من في الشارع يضربني، كأنها حفلة، شارك فيها كل صغير وكبير.

ولم يتركوني إلا جثة هامدة، فاقد للوعي، و الدماء تنزف منّي، من كل أنحاء جسدي، إنني فى نظرهم ابن عاق، وقليل الأدب، ومحتاج تربية.

رموني بالشارع لأُصبح فُرجة للرايح و الجاي، وعِبرة لكل ابن عاق يسب ويضرب أبوه، هكذا فهموا من كلام سيد ثعلب لي.

وبعد وقت قصير، فُقت من غيبوبتي، على بستلة مياه غسيل أو مسح شقة من احدى البلكونات فوقي، لأنهض مذعورًا.

ونهضت بصعوبة من على الأرض، ولملمت ملابسي الممزقة وجسدي الموَرم، وأنا أتأوه من الألم، والوجع بكل جسدي.

وسِرت بالشارع أتألم، ووجهي ينزف منه الدماء، أسير بصعوبة بالغة وخلفي كل الاطفال، يرددون:

* يا ضارب أبوك ياخاسر دينك كلبتنا السودا هطلع مصرينك.

بسبب سيد ثعلب المعتوه، اتعمل عليَّ حفلة، ضرب، وسب، وإهانة وإهدار لكرامتي.

و تحملت الألم، والسب، والإهانة، حتى وصلت للحارة التي أسكن بها بالتوك توك ومن حُسن حظي، أن الحارة كانت خالية تمامًا من الناس.

دخلت بيتنا، وصعدت السلالم بصعوبة بالغة، حتى وصلت لشقتنا، ودخلت الشقة بهدوء حتى لا يشعر بي أحد من أخواتي البنات، أو والدي.

ويروني بهذه الحالة، ملابسي ممزقة، وكل جسدي ينزف منه الدماء.

وأغلقت باب غرفتي عليَّ، ونمت على سريري أتأوه من الألم.. ألم شديد بكل أنحاء جسدي وأشعر بغضب، وغيظ شديد، من الضرب والإهانة التي تعرَّضت لها بسبب شخص معتوه.

والغريب أن سيد ثعلب النّذل اختفى من المشهد تمامًا، كأنه فص ملح وداب وترك رواد المقهى و الحي يضربوني بدون رحمة.

ونهضت من سريري بصعوبة، وأنا أتوجع، أتخلص من كل ملابسي.

وخلعت كل ملابسي، ووضعتها بصندوق القمامة، حتى أتخلص من هذه الذكرى المؤلمة.

* ودخلت الحمام بهدوء، حتى لا يشعر بي أحد، وأخذت حمام دافيء.

وارتديت ملابس أخرى، وعملت لنفسي إسعافات أولية للجروح التي بكل أنحاء جسدي، ووجهي.

ودخلت غرفتي، وشغّلت الكاسيت على أغاني المطرب المفضّل لي محرم فؤاد.

وأحاول جاهدًا أهديء من توتري، وآلامي المُبرِحة.

* ونِمت على سريري، وكُلّي تَعَب وألم، أفكر فيما حدث لي، كأنه كابوس مزعج.

أفكر في كلام ذلك المعتوه سيد ثعلب، وما سبّبه لي من عَلْقة سُخنة.

ونهضت من على سريري، وأنا أتوجع من الألم، ووقفت أمام مراية التسريحة، أتأمل وجهي وما حدث به.

وجهي أصبح أشبه بـ البالّونة المُنتفخة، أصبح كله مُوَرم.

* ووقفت أتأمل نفسي، أفكر فيما قاله لي ذلك المعتوه.

وأسأل نفسي ، هل حقًا أنا أُشبه ذلك المجنون ؟

وأيه يعني يخلق من الشبه اربعين، وخمسين، ومائة، وألف.

وليس معنى أني أُشبهه، أنه يدَّعى أنى ابنه، وهو أبويا.

* من المؤكَّد، والأكيد، أن هذا الرجل نصَّاب.

ولكن من المثير للدهشة، هو اختياره لي من ضمن عشرات الشباب.

لماذا أنا، ربما للشبه الكبير بيننا، أو يمكن فقد ابنه، ويشبهني.

كل شيء وارِد وممكن، واحتمال يكون مجنون.

لكن لا ، لا ، أنه يتحدث بثبات، وثقة، وهدوء، وإصرار.

لم أشعر بارتجاله، أو اضطراب نفسي، أو توَهان في كلامه وتصرفاته.

حقاً أنا أُشبهه، نفس لون العينين، و الشعر، والبشرة، مُصادفة غريبة.

لكن ليس هذا معناه، أني ابنه كما يدَّعي...

ويُفتَح باب غرفة وافي، ويدخل والده، الأستاذ الهادي، بدون أن يدري به ويُفاجأ بابنه يقف أمام مراية التسريحة، يُحدِّث نفسه بغضب وعصبية وصوت عالي، ويصيح...

- أكيد هذا الرجل معتوه، أو حشّاش، أو نصّاب

أكيد مجنون، كيف يدَّعى أني ابنه.

وأنا لا يمكن أكون ابنه، ولا هو أبويا.

أنا في كابوس، كابوس مُزعج، نفسي أتخلّص منه، وأنساه.

* الاستاذ الهادي يقترب من ابنه وافي بحنان الأب، وينادي عليه ولكن لم يسمعه، أو يشعر به، ولا بدخوله الغرفة.

ويُكرر الأب النداء على ابنه، ويقترب منه.

وينتبه وافي لنداء والده، ويُفاجأ بوجوده بالغرفة، ويقف خلفه.

يحدث لـ وافي حالة من الارتباك و القلق، والصمت.

ويحاول أن يداري وجهه عن والده.

ويعاود الأب حديثه مع ابنه، وهو مُندهِش من ارتباكه، وصمته.

ويُفاجأ الأب بالجروح التي بوجه ابنه، وتورُّم وجهه، ويُصيبه إنزعاج وغضب وحزن.

ويمسك بوجه ابنه بحنان، وتأمل، وحزن، ويسأله بهدوء...

- من الذي أصاب وجهك هكذا ؟

* يقف وافي أمام والده صامت، لا يدري ماذا يقول !

في حيرة وارتباك، يُصارح والده بالحقيقة، وما دار بينه وبين سيد ثعلب، وما حدث له بالمقهى بادعائه الكاذب.

أم يكذب على والده، ولم يفعل ذلك طوال عمره، عمره ما كذب.

وافي شارد، حائر، مرتبك، صامت، لا يدري ماذا يفعل، وماذا يقول كله أمل أن يغير والده الحديث، وسؤاله له.

الأب ينظر لابنه بدهشة شديدة من صمته، وشروده، وعدم ردّه على سؤاله، مما يغضبه، ويكرر سؤاله بلهجة حادة.

- من الذي أصاب وجهك هكذا ، اتكلم مين !

* وافي يدرك أن والده مُصِرّ على سؤاله، ومعرفة من الذي أصابه ،ويحاول جاهدًا أن يتمالك أعصابه، ويهدىء من توتره، ويكون هادىء، ويفكر حتى يستطيع الخروج من هذا المأزق الحَرِج.

وبعد لحظات من الصمت، ينظر لوالده بابتسامة مصطنعة.

ويحاول أن يغير موضوع الحديث مُرَحِبًا به قائلًا.

- أهلًا وسهلًا بأستاذنا العظيم، وشيخنا الجليل، والأب الحنون بغرفتي المتواضعة.

غريبة ياوالدي، لم أشعر بدخولك لغرفتي.

* يرُد الأب ساخرًا، و بدهشة.

- أنا هنا من بدري يابشمهندس، بعد أن طرقت على باب غرفتك عدة مرات، ولم ترُد، قلقت عليك و دخلت.

ووجدتك للأسف بتتخانق مع المراية، وبانفعال شديد، وبكلام غير مفهوم خالص، وبصوت عالي، ممكن اعرف فيه أيه !

أول مرة في حياتي أراك بهذا الانفعال و الغضب، و الصوت العالي.

* لم يجد وافي مفرّ من الكذب، لأول مرة في حياته يكذب على والده، قائلًا:

- يا بابا يا حبيبي، أنا مش باتخانق ولا حاجة، لا مع نفسي، ولا مع المراية.

كل ما في الأمر، أني باقوم بمشهد تمثيلي.

* الأب ينظر لابنه بدهشة مبتسمًا، ويسأله.

- أنت ناوي تمثل يا بشمهندس أتشتغل بالفن.

- حضرتك أعندك اعتراض يامولانا ؟

- أبدًا، خالص يابني.

لكن لازم تعرف، الفن شيء جميل، ورسالة عظيمة، وعمل راقي.

عارف يا وافي، تعرف تقدُّم الدول وحضارتها، بفنها، وثقافتها وتاريخها.

الفن شيء عظيم، مادام بيوصّل للناس رسالةهادفة، سواء كان العمل دراميًا، أو كوميديًا، أو تراجيديًا، أو مسرح، أو أي نوع من الفنون.

الفن رسالة عظيمة، يؤثر في وجدان الشعوب، ويرتقي بها.

الفن شيء راقي، مادام بدون ابتذال، أو إسفاف، أو عُرى وجنس وألفاظ تخدش الحياء، والأدب.

ولكن يا ابني الفن موهبة من عند الله، ودراسة، وثقافة.

هل أنت عندك الموهبة، دارس ؟

معلوماتي عنك، لم يكن لك أي اهتمام بالفن طوال حياتك.

هل الموهبة ظهرت عليك فجاة.

وهل الإصابات، والشخبطة التي على وجهك، والانتفاخات مشهد تمثيلي.

بتمثل دور حرامي، أوعى تكون دوبلير، بتضّرب فقط...

* وافي يضحك، ثم يمسك وجهه من الألم، ويرد بارتباك.

- بصراحة يا والدي، كل الغصابات التي بوجهى حقيقية بسبب فضّي لمشاجرة وما ينوب المخلَّص إلا انتفاخ وجهه، وتقطيع هدومه.

* الأب ينظر لوجه ابنه بحزن وألم، ويسأله.

- ياترى عرفت مين اللى شخبط وعلّم على وجهك كده.

وأين كانت هذه المشاجرة، فين !

* وافي يرد بخجل، وارتباك

- المشاجرة كانت بأحدى المقاهي بالكيت كات، بين رواد المقهى بسبب لعبة الطاولة.

* الأب يعاتب أبنه بتأثُّر، وحزن.

- ومن أمتى وأنت بتقعد على المقاهي يا بشمهندس.

- واحد صاحبي، لم أراه من سنين طويلة، قابلته صدفة بالطريق وأصرَّ على شرب الشاي معه، وأثناء جلوسنا، حدث ما حدث مشاجرة بين رواد المقهى.

- الأب ينظر لأبنه ولوجهه بتأثُّر، وحزن، قائلًا - حمد لله على السلامة، وألف سلامة عليك يا بشمهندس.

اسمح لي بالمغادرة، لقد تأخرت عن ميعاد نومي بسبب قلقي عليك وتأخُّرك.

تصبح على خير ياابني، بكرة لازم تروح لدكتور المسجد لعمل اللازم معاك.

- وأنت من أهل الخير يا بابا، يا أحلى وأعظم وأطيب أب في الدنيا كلها.

- ربنا يبارك فيك ياابني، ويبعد عنك ولاد الحرام، و الشيطان.

* ويستعد الأب للخروج من الغرفة، وقبل أن يخرج من باب الغرفة، يلتفت لابنه ويسأله.

- صحيح يا بشمهندس، من أين أتت لك فكرة الاشتغال بالفن ؟

* يُفاجأ وافي بسؤال والده، ويرد بارتباك.

- من صديق لى، بيشتغل بالفن بأحدى الفِرق المسرحية التابعة لوزارة الثقافة.

وعرض عليَّ الفكرة، والعمل بالفرقة واحتمال أخوض التجربة يمكن يكون بداخلي فنان وأنا معرفش.

لكن أنا مش مرتاح للتجربة، أنا خُلقت لأكون مهندس.

- ربنا يوفقك ياابنى لما فيه الخير لك، ولبلدك، وللناس.

* وافي يسرع ويرتمي في حضن والده، وتنساب دموعه، قائلًا:

- أنا بحبك، بحبك جداً يا بابا، وفخور وسعيد أنك والدي، وأستاذي، فخور كل الفخر أني ابن شيخ جليل وأستاذ عظيم، ومُربي أجيال مثلك.

* الأب يُقبّل رأس ابنه وهو في حضنه، ويرد بحب:

- وأنا كمان فخور بيك ياابني، أنت نموذج للشاب والأبن المثالي في كل شيء.

بسم الله ماشاء عليك، مهذب، مجتهد، مؤمن، وابن صالح، ومهندس كُفء.

والابن الصالح خير من الدنيا وما فيها،» وابن صالحٌ يدعو له» كما قال رسولنا الكريم.

عارف ياابني أنت وأخواتك البنات، أكبر هدية من الله لي.

والفضل في تربيتكم يرجع لأمكم، الست الفاضلة، و الزوجة المخلصة، والأم الحنونة، أمكم عشرة عمري، ورفيقة دربي، الله يرحمها ويجعل مثواها الجنه ، آين يارب.

أمكم هي صاحبة الفضل علينا جميعًا، رحمها الله، وأدخلها جناته.

عارف ياوافي ياابني أمك وحشتني جدًا جدًا، تركت فراغ كبير في قلبي وحياتي، و البيت.

كانت رمز للحب و الحنان، و الإخلاص والوفاء، عطاء بلا حدود.

عاشت لنا، وتحملت من أجلنا، ضحّت بعمرها وصحتها، ورحلت في هدوء.

* لأول مرة أرى دموع والدي، دموع كلها حنين، وحب واشتياق وتقدير لأمي.

وحاولت بسرعة الخروج بأبي من حالة الحزن و الدموع، قائلًا له ببسمة حزينة ربنا يخليك لينا يا بابا.

* ويمسح والدي دموعه، وينظر لي بحب، قائلًا بإيمان ونفس راضية بقضاء الله:

- ياابني الأعمار بيد الله عز وجل، الحمد لله.

أنا مطمئن على أخواتك البنات من بعدي، ومش خايف عليهم.

لأني تارك لهم راجل، وأخ جميل وحنون.

وصيتي إليك ياابني أخواتك البنات، أمانة في عُنقك.

(12)

* وتمر الأيام... حاولت فيها نسيان ذلك المجنون، والمعتوه، سيد ثعلب.

ونسيان ما حدث لي بسببه، علقة سُخنة من رواد المقهى، وأهل الحارة، وهرب الجبان.

كان كابوس مخيف، و الحمد لله ربنا ريحني منه، وأختفى، خايف مني.

حاولت طوال الايام الماضية نسيان هذا الكابوس المزعج.

وللأسف لم أنساه وظلَّ كابوس كاتم على صدري، يختفى كلما نمت.

* كنت دائما في رهبة وخوف من ظهور سيد ثعلب مره أخرى ، ودائمًا أسأل نفسي، من وراء هذا الرجل، الثعلب.

فوجئت صباح يوم الجمعة، يوم أجازة لمعظم المصريين، وعيد للمسلمين وتجمعهم في صلاة الجمعة، كنت مستغرق في النوم تدخل عليَّ أختي الصغرى مريم غرفتي، وتوقظني بهدوء.

وتخبرني بوجود رجل يسأل عني، وينتظرني بباب الشقة.

وسألت أختي مريم، من ذلك الرجل !

الذي يأتي صباحًا، وبدون سابق معاد، ويوم الجمعة، يوم الأجازة ،وأنا عمري ما استقبلت معارف، أو أصدقاء، أو أي شخص بشقتنا على الإطلاق.

وأخبرتني أختي بعفوّية، وتلقائية، بقول الرجل لها...

بلّغي أخوكي بابا سيد ينتظرك بالباب، عاوز يطّمن عليك.

حاولت وأنا نائم على سريري، أتذكر أن لي أصدقاء، أو معارف بأسم سيد، ولم أتذكر.

- سيد، سيد مين..، أنا لا أعرف أحد بأسم سيد خالص.

ووقفت أختي مريم أمامي تحاول أن تتذكر باقي أسمه وهي تضحك قائلة، أسمه سيد ديب، سيد أسد، سيد تمساح.

أسم والده من أسماء الحيوانات المفترسة، آه ، آه ، افتكرت اسمه.

اسمه مثل شكله، اسمه «سيد ثعلب».

وما أن سمعت أسم سيد ثعلب، أنتفضت من سريري مذعورًا.

وفوجئت أختي مريم بخضتي، وفزعي، وانزعاجي.

وأول ما دار برأسي، هو أبي.

وسألت أختي بفزع وخوف أن يرى بابا ذلك الرجل.

- أين بابا ؟

* كان رد أختي مريم لي راحة لقلبي، وصدري...

عندما أبلغتني بذهاب والدي من بعد صلاة الفجر لزيارة قبر والدتي.

* أرتديت ملابسي بسرعة، ونبهت على أختي مريم بدخولها غرفتها، وعدم الخروج منها أبدًا، إلا إذا خرَجْت من الشقة، أو ناديت عليها، أو يرحل ذلك الضيف الثقيل.

وخرجت مسرعًا لمقابلة سيد ثعلب، وأنا كلي غضب من ذلك المعتوه.

* وخرجت.. وأنا كُلّي غضب منه، وما سببه لي من علقة سُخنة وإهانة وإهدار لكرامتي من الرايح و الجاي بالشارع، والأطفال.

وجدته يقف بالباب في منتهى البجاحة، و الغلاسة، وقلّة الأدب.

أشتد غضبي عندما رأيت ذلك المجنون، قليل الذوق، ونهرته بغضب.

- أنت، أنت ياجبان، ياحيوان، يا مدّعي، يانصّاب.

أنت ازاي تتجرأ وتأتي لهنا، بعد ما سببته لي من إهانة، وضرب بسبب إدعائك الكاذب، أني ابنك، وأنت أبويا، أنت وَقِح، وعار.

من مصلحتك تبعد عني، لو خايف على نفسك، وعلى حياتك، ابعِد..

أنا ممكن أبلَّغ عنك الشرطة، يا نصّاب، يا كذّاب.

* ببرود شديد، وغلاسة يرد سيد ثعلب:

ياريت، بلّغ الشرطة، عشان فضيحتك أنت وأبوك تكون بجلاجل.

* وافي يرد عليه بغضب شديد، ويحاول أن يتمالك أعصابه وغضبه..

- فضحتي أنا وأبويا، من أيه إن شاء الله ؟؟

نحن ناس أشراف، محترمين، على خُلُق ودين، ويشهد على ذلك كل الناس.

أما أنت، راجل نصّاب، أفَّاق، مدَّعي، لاعندك أخلاق ولا دين.

ومن الأفضل لك، تبتعد من هنا، ولا أرى وجهك مرة أخرى.

كفى ما سببته لي من ضرب وإهانة، غور في داهية بعيد عني.

* ببرود كعادته يرد سيد ثعلب، بابتسامة ساخرة صفراء.

- أنا أسف جدًا على العلقة السُخنة التي أخذتها من رواد المقهى.

وكان لازم تتعلم بعد العلقة الجامدة دي، التي أثرها مازال معلم على وجهك الجميل، تتكلم مع أبوك باحترام، وأدب.

بالذمة والدين و الأخلاق، فيه ابن محترم، ومهندس، يتكلم مع أبوه بهذا الاسلوب.

ويقابله بهذه المقابلة السيئة، و بيهدده، عَجِبت لك يازمن، أنتي فين يا أخلاق.

* وافي يشطاط غضبًا من كلام سيد ثعلب، ويهدده قائلًا:

– أنا صبرى نفذ، امشي من هنا حالًا، أنا باكرهك، أنت كابوس.

أنا عمري ما غلط فيَّ حد، ولا عمري اتشاجرت مع حد سواء صغير، أو كبير لكن لو مبعدتش عن طريقي، مش عارف ممكن أعمل فيك أيه، يانصّاب.

* سيد ثعلب يضحك، ثم يصيح بغضب في وافي.

– يعنى لو سمعوا الجيران، ما تقوله من سبّ وإهانة لأبوك وشافوا تهديدك لي بالضرب، تضرب ابوك.

تفتكر هيعملوا معاك أيه، أكيد علقة سُخنة تانية، وفضايح ليك ولأبوك، وأخواتك البنات، ولأمك الله يرحمها.

* وافي يفقد أعصابه، ويمسك بـ سيد ثعلب من ملابسه، ويجذبه بعنف ويتخلص سيد ثعلب من مَسْك وافي له، وجذْبُه، ويبعد عنه قائلًا له ساخرًا:

– أنت أيه... مبتحرَّمش ،خدت على الضرب و البهدلة، جسمك نحَّس، ارحم نفسك.

وخلي عندك ذوق وأدب، وأخلاق.

وقول لأبوك بترحاب، اتفضل يا بابا، اشعرني أنك ابن بار بأبوك مش عاق.

* وافي يشطاط غضبًا، ويثور في وجه سيد ثعلب، يريد أن يضربه ويفتك به.

ويعُض على أسنانه، يحاول أن يتمالك أعصابه، ويصيح فيه غاضبًا، قائلًا:

- أنت يا راجل يا مجنون، أنت بتقول أيه، أنا مش ابنك، ولا أنت أبويا.

واما أنت أبويا، الراجل الفاضل الشيخ الهادي الطيب، اللي فتَّحت عينيا على الدنيا في حضنه، رباني، وعلمني، ورعاني، وبحمل اسمه، يطلع مين !

* سيد ثعلب يرد بهدوء وغلاسة واستفزاز وقلة أدب.

- ببساطة شديدة، جوز أمك، أب مُزيّف، أب مدَّعى، نصّاب.

* وافي لم يتمالك أعصابه وغضبه، ويُفاجئ سيد ثعلب بلكمة قوية تطرحه أرضًا على السلالم، ينزف الدماء من فمه، وينهض وهو يتألم، ويمسح الدم، قائلًا ببرود:

- أنت، أنت تاني، أنت مبتحرمش، مش لسه واخد علقة سُخنة بسبب ضربك لي.

بالذمة فيه ابن يضرب أبوه كده، الدنيا مبقاش فيها خير يا ناس.

* وافي يزداد غضبًا ونرفزة، ويصيح في سيد ثعلب.

- قلت لك يا راجل يا معتوه، أنا مش ابنك، ولا أنت أبويا.

ولا يشرفنى أنك تكون أبويا، أنت راجل واطي، سافل، همجي ومجنون.

* سيد ثعلب يصيح بصوت عالي، يريد أن يفضح وافي أمام جيرانه..

- يا ناس، يا هوو، تعالوا، وشوفوا المهندس المتربي، المتعلم تربية الشيخ الهادي الطيب، ضرب أبوه، ورماه على السلالم، وبيقول عليه واطي، وسافل، ومجنون.

فيه ابن يضرب ويسب أبوه، أنت أيه ! ابن حرام.

* وافي ينظر للسلالم، ويغلق باب الشقة، خوفًا من سماع أخواته أو الجيران لما يقوله، ويدَّعيه، سيد ثعلب، وبسرعة يجذبه من ملابسه بعيدًا عن الشقة.

وينزل به مسرعًا على السلالم، بعيدًا عن البيت، والحارة، والحي كله.

ويذهب به لساقية الصاوي، مكان وافي المفضل، ملتقى الشباب والمبدعين، و المثقفين، وهو عضو فعَّال بالساقية، منذ سنوات طويلة..

(13)

* وجلس وافي بركن جانبي، على النيل، بعيدًا عن رواد الساقية.

ويذهب للكافتريا، ويحضر له ينسون، وشاي لسيد ثعلب.

وافي يجلس أمامه، وينظر له باشمئزاز، وغضب، يريد أن يفتك به.

ويحاول أن يهدىء من توتره، وانفعاله.

* ويُفاجئ سيد ثعلب وافي، بطَلَب غريب، في هذا المكان الثقافي يريد شيشه.....

وافي يرد وكله غيظ:

- لا يوجد هنا شيشه، ممنوع هنا التدخين نهائيًا، سواء سجائر أو شيشه.

* سيد ثعلب ينظر حوله لرواد الساقية، ثم ينظر لـ وافي متعجبًا قائلًا بسخرية:

- ليه ممنوع التدخين، هو أحنا قاعدين في مستشفى الصدر.

أحنا قاعدين في كافتريا، ممنوع فيها التدخين، ليه....

كل الكافتريات، و الملاهي، و البواخر التي تطل على النيل فيها كل شيء، ومشاريب.

ونسوان حلوه، وشيشة، وسجائر، وأكل، وغُنا، ورقص، وبيصرَّفوا في النيل، ومحدش قال لهم ممنوع.

ياعم تعالى نروح كافتريا، ولا قهوة تانية، مش ناقصين خانقة ونشرب براحتنا.

* وافي يحاول أن يكتم غضبه من غباء وجهل سيد ثعلب، ويقول له:

- أنت هنا مش في كافتريا، ولا قهوة، أو ملاهي ليلية.

أنت هنا في مكان محترم، مكان مقدَّس، مكان للعلم و الثقافة والفنون.

أنت هنا في ساقية الصاوي.

* سيد ثعلب يستمع لكلام وافي بدهشة، وتعجَّب، وجهل، ثم ينظر حوله يمينًا ويسارًا.

ينظر حوله كأنه يبحث عن شيء، ثم ينظر لـ وافي ويسأله بغباء وجهل.

- ولا مؤاخذة، مش واخد بالي، هي فين الساقية دي.

أول مره أعرف أن في منطقة الزمالك ساقية، حاجة غريبة.

لكن الزمالك منطقة راقية من زمان، ومفيهاش أرض زراعية خالص، الساقية موجودة هنا ليه، بتسقي أيه؟ وبتسقي مين ؟

* وافي في استياء شديد من غباء وجهل سيد ثعلب.

ويحاول أن يفهّمه قيمة المكان، ومعنى كلمة ساقية الصاوي والمراد منها، قائلًا كلمة ساقية هنا تشبيه، شبّه المكان بالساقية، لأن هذا المكان بيروي روّاده بالثقافة، والفنون، والأدب،والعلوم والإبداع.

* سيد ثعلب يسأل وافي بغباء.

- شيء جميل ورائع، سؤالي هنا، أين هي الساقية، نفسي أشوفها.

بتروى أزاي ثقافة، وعلوم، وفنون، يا سبحان الله، اللي يعيش ياما يشوف.

* وافي يشعر بغباء وجهل سيد ثعلب، وصعوبة فهمه، ويرد عليه بانفعال:

- من الأفضل نعود لموضوعنا، نتكلم بهدوء، ونستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.

أرجوك ياعمي سيد، افهمني، واسمعني بهدوء، وبدون غضب.

أولًا، أنا باعتذر لك على كل ما بدر منِّي من إساءة إليك أرجوك سامحني.

* سيد ثعلب يرد بغرور، ومتقمص دور الأب..

- سامحتك ياابني، وربنا قادر يهديك، سامحتك من قلبي، قلب الأب.

* وافى يحاول أن يتمالك، ويهديء من غضبه، من رد سيد ثعلب ويعاود حديثه بهدوء، قائلًا:

- أنا ابن راجل فاضل، أب عظيم، وحنون، ومُربي أجيال.

* سيد ثعلب سعيد بكلمات وافي، ويرد بفخر:

- شكرًا ياوافي يا ابني، على كلماتك الجميلة، كفاية كده عشان باخجل، واتكسف، ربنا يبارك فيك هو ده الكلام.

* وافي يشطاط غضبًا من رد وغباء سيد ثعلب، وينهره بغضب.

- أنا مش بقول عليك، أنا بتكلم على بابا.

* سيد ثعلب يرد غاضبًا، وساخرًا.

- أُمال أنا مين، مرات خالك، أنا أبوك، فاهم، أنا أبوك.

- أبويا هو اللي ربَّانى، أبويا هو اللي باحمل أسمه، ولي الشرف.

أبويا هو الشيخ الجليل، و الأستاذ العظيم، و الأب الحنون والصديق المخلص.

أبويا هو الذي وهب حياته، وعمره لي ولأخواتي.

أبويا هو الأستاذ «الهادي الطيب»، راجل العلم، و المباديء والأخلاق رمز عظيم لي.

أما إذا كنت شايف فيا ابنك اللي اتحرمت منه، فأنا مستعد أكون ابنك، وصديقك.

إنما كل ما أرجوه منك، لا تسبب لي مشاكل، أو إزعاج في حياتي وأسرتي.

ولا تقل كلام يمس الشرف و النسب، كلام يضيع فيه رقاب.

كيف تقول على الراجل الفاضل، اللي خلفني، ورباني، وعلمني ليس أبي، وأب مزيف.

* سيد ثعلب ينظر لـ وافي بهدوء، وبرود يحسد عليه، ثم يرد بثقة وغرور.

- كل ما تقوله لا يعنيني في شئ، عن الأستاذ الهادي.

المهم عندي تعرف حاجة واحدة، أني أبوك، أبوك الحقيقي، السبب في وجودك في الدنيا.

أنا أبوك، شئت أم أبيت، من صُلبي، حتة مني.

* وافي يشتد به الغضب من كلام سيد ثعلب، وإصراره على الكذب و الأدّعاء.

ويجذبه من ملابسه، وينهره بشدة،أيكاد يضربه، ويفتك به، ويصيح فيه.

– أنت يابني آدم فاهم كلامك ده معناه أيه، قدَّر وافهم ما تقول، حتى لا تُخرجني عن شعوري وإذا كان اللي بيتكلم مجنون، اللي بيستمع عاقل.

تقدر تقوللي أنت أبويا ازاى ! اتجوزت أمى.

* سيد ثعلب يرد بهدوء وبرود:

– لا لم أتجوز أمك، للأسف لم يسعدني الحظ، و لم توافق أمك.

كان أمنية حياتي أتجوزها، لكن خطفها مني الأستاذ الهادي، الله يسامحه.

* وافي يرد بارتياح:

– الحمد لله، اعترفت بنفسك.

* سيد ثعلب يرد ببرود:

– هذا ليس معناه أنك مش ابنى، أنت ابنى، وأنا أبوك.

* وافي يزداد غضبًا وثورة وهياج، و يصيح في سيد ثعلب.

– أنت يا راجل يا مجنون، يا معتوه، عاوز تجنني، أنت شارب، ولا مبلبع أيه.

* سيد ثعلب يرد بهدوء، لا يبالي بإهانة وسب وافي له.

– يا ابنى، يا حبيبي، أنا مش مجنون، و لا معتوه، ولا شارب ولا بادَّعي كذب أنك ابنى.

أنت بالفعل ابنى، ومن صلبي، وأملُك الأدلّة على ذلك.

* وافي يثور في سيد ثعلب كالثور الهائج، ويصيح فيه..

– أنا مش ممكن أكون ابنك، ولا يشرفني أنى أكون ابنك.

وأيّ أدلَّة تملكها يا نصاب، معاك قسيمة زواج، ولا شهادة ميلاد

* سيد ثعلب يرد ببرود:

– حقيقي معنديش قسيمة زواج، ولا شهادة ميلاد، لكن أنا أبوك.. أبوك الحقيقي.

إنما لدى أدلَّة أخرى، أدلَّة قوية، تدل على أنك ابنى، ومن صُلبي.

– إياك تقوللي الكلام العبيط، أني أشبهك، وفولة وأتقسمت نصين وحته مني.

– حقيقي أنك تشبهني ،وهذا دليل قوي على أنك ابني.

– حقيقى أنت راجل مجنون، ونصاب.

أنت عارف إصرارك على أني ابنك ده معناه أيه؟؟

أنت بتشكك في نسبي، وأهلي، وتقوللي أبوك مش أبوك، وأمك مش أمك.

* سيد ثعلب يقف غاضبًا، مقاطعًا لكلام وافي، قائلًا بغضب:

– قِف عندك، وحاسب على كلامك، إلا أمك، أمك هي أمك، اللي حملتك في بطنها تسعه شهور منّي.

* وافي بدون شعور، يبصق في وجه سيد ثعلب، ويدفعه دفعة شديدة، يقع على الأرض يتأوه من الألم، ويثور في وجهه، ويسبه باحتقار.

– أنت راجل سافل، وحقير، وقليل الأدب، ومحتاج تربية.

أنت ازاي يا مُنحط، يا قذر تقول الكلام ده، أنت بتشكك في نسبي وشرف أمي، أنا أقطعك، أموتك، أقتلك، غلطتي أني قعدت مع واحد مثلك، عديم الشرف و الاخلاق.

* سيد ثعلب يُحدِّث وافي وهو على الارض يتأوّه..

– أنت، أنت تاني، كلاكيت ثالث مرة، تضرب أبوك، عاوز علقة تانية من شباب الساقية.

أنت أيه مفيش في قلبك رحمة، أنت ابن عاق، محتاج تربية.

ربنا قال « ولا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما «.

صحيح أوف عليك وعلى تربيتك، تضرب أبوك، وتسبّه.

بالذمة شباب الساقية يقولوا عليك أيه، مش متربي، ولا مُتحضر ولا متثقف.

* وافي يثور في وجه سيد ثعلب ويحذره.

- شوف يا راجل أنت، لو خايف على نفسك أبعد عني، غور في داهية كلامك يروح فيه رقاب، وأنا استنفذت صبري معاك، أنت عاوز منِّي أيه، مين مسلَّطك عليَّ، اتكلم يا جبان، يا مجرم، يا عديم الشرف و الأخلاق.

- عاوزك تسمعني لمدة خمس دقائق فقط، عشان تعرف الحقيقة.. الحقيقة المُرَّة.

وبعد ذلك قرر، إن كنت صادق، ولا كاذب.

- خلاص خلص الكلام، ومات، أبعد عني.

- لن أبعد عنك، على جثتي، إلا إذا عرفت الحقيقة، وسمعتني، لازم تسمعني، وتفكر في كلامي.

- وأنا لن أسمع لواحد مثلك نصّاب، وقليل الأدب، وبيخرّف.

- وأنا والله العظيم، لن أبعد عنك ،على جثتي، لازم تسمعني وتفكر في كلامي، وتعرف الحقيقة كاملة، الحقيقة الغائبة عنك، الحقيقة التي أخفتها أمك عنك طوال السنين.

- أخرس، يا سافل، قّطْع لسانك، إياك تجيب سيرة أمي على لسانك القذر.

- عند أمي، لازم تقف، أقتلك.

أمي هي أعظم أم في الدنيا، وأطهر ست، فاهم يا وقح.

- وأنا مش مختلف معاك في كده خالص، الله يرحمها، ويغفر لها الفاتحة ليها.

* سيد ثعلب يرفع يده، ويقرأ الفاتحة بصوت مسموع.

وافي ينظر له بكُره، وتعجُّب.

ويعاود سيد ثعلب حديثه، بطريقة مستفزة.

- أمك الله يرحمها، كانت أجمل، وأشرف، وأطهر، وأحلي ست في الدنيا كلها.

أنا مش مختلف معاك في كده خالص... أرجوك، اعطيني فرصة لمدة خمس دقائق فقط، أعرفك الحقيقة....بشرط عدم مقاطعتي، مهما كان الكلام جارح.

- موافق، بشرط، بعد ما اسمع كذبك وكلامك، لا أرى وجهك مرة أخرى، تختفي من حياتي للأبد، فاهم.

– موافق المهم تسمعني، وتتحملني، وتتحمل الحقيقة المُرة، مهما كانت قاسية.

* وافي يلتفت حوله، يجد رواد الساقية في حالة استياء وغضب وانزعاج من أصواتهم العالية.

و يشعر بالحَرَج الشديد من نظراتهم، و بالخجل.

ينظر لـ سيد ثعلب باشمئزاز، قائلًا له بصوت منخفض:

– من الأفضل نغادر الساقية، ونذهب لمكان أخر، لقد سببنا إزعاج للرواد.

* سيد ثعلب يلتفت حوله لرواد الساقية، ويسأل وافي بغباء.

– أنا للآن لم أرَ الساقية، هي فين ؟

* وافي ينظر لـ سيد ثعلب بغضب من غبائه وجهله، وينهض من جلسته قائلًا:

– لازم نبعد عن المكان المقدس هذا، حتى لا يدنسه شخص مثلك.

هذا المكان هو قِبلة المثقفين، والمبدعين، والفنانين، ووجودك هنا خطأ منّي، وبعترف بذلك.

* سيد ثعلب يرد بغباء:

- يااااه، عايش في مصر، وأول مرة اعرف أو اسمع هذا الكلام واعرف هذه المعلومة، اعذرني أصل أنا جاهل بالدين.

والله العظيم، أول مرة اعرف أن هناك قِبلة لصلاة خاصة بالمثقفين و المبدعين صحيح ربنا كرَّم العلماء والمثقفين.

سؤالي هنا، إمام المسجد يعرفهم ازاي، مثقف، أو غير مثقف.

* وافي يجذب سيد ثعلب من ملابسه، لشاطيء النيل لتأجير مركب صغير.

وركب المركبة، وأدار ماتورها، لتسير مسرعة في عرض النيل و تنطلق المركبة بعيدًا عن الأنظار.

ويوقف وافي ماتور المركبة، لتقف بعرض النيل، بالقرب من إحدى الجُزر.

ويخرج سيد ثعلب علبة السجاير من جيبه، ويخرج سيجارة ويشعلها ويبدو من رائحتها أن بها حشيش، مخدرات.

يأخذ نفس عميق، ويخرج من فمه دخان كثيف، قائلًا بسعادة:

- أهو كده، الواحد يعرف ياخد مزاجه، أنا كنت خرمان خالص، ومش مركّز معاك.

أحسن شيء أننا بعيد عن الأنظار، والناس، والساقية، والقِبلة والمثقفين، والمكان المقدس بتاعكم.

وأصبحت أنا وأنت لوحدنا، في عرض البحر، نتكلم براحتنا.

ويشهد علينا ربنا، وأقسم بالله العظيم، أنى صادق فيما أقول، والله على ما أقوله شهيد وكل ما أرجوه، أن تتقبل الحقيقة، مهما كانت مُرة وقاسية ومؤلمة.

تتقبل الحقيقه بنفس راضية، وروح رياضية.

* وافي ينظر لـ سيد ثعلب باحتقار شديد، وعدم ثقة، وكُره، قائلًا له:

- اتكلم، ارغى، اكذب، بس لخّص واختصر.

* سيد ثعلب يأخذ نفس كبير من سيجارته، ويخرج الدخان في وجه وافي.

وافي يكُح بشدة، وعينيه تحمَر، وينهره بغضب.

- من فضلك ابعد عني دُخانك الملوث هذا، وانجز، ولخّص حديثك، صدقنى أنت كابوس مزعج، نفسي استيقظ منه.

* سيد ثعلب يجلس بآخر المركبة، ويعيش في دور الراوي، قائلًا:

- زمان، من سنين طويلة، وأنا في عمر الطفولة، الصياعة المبكرة. كنت طفل شقي جدًا، وفاشل بالدراسة.

وبرغم صغر سنّي قلبى دق، وحب، حب أجمل، وأحلى، وأشيك بنت في الحارة كنت برغم صِغر سنّي مُتيم بها، ومعجب بها وبأدبها، وأخلاقها وباسهر الليالي أتعذب في حبها، كنت بحبها جدًا.

كانت بنت مختلفة عن بنات الحارة، و الحي كله، بجمالها، ورقتها وهدوئها.

البنت دي كانت أمك، الله يرحمها.

* وافي ينظر لـ سيد ثعلب بغضب ويحذره.

- أنا باحذرك، احترم نفسك وانت بتتكلم عن أمي، إلا أمي أبهدلك فاهم.

- أرجوك، أتركنى اتكلم براحتي، على طبيعتي، واعرفك الحقيقة كاملة.

من البداية للنهاية، وبعد ذلك لك الخيار، و القرار.

و النهاية أنت وحدك، اللي هتكتبها.

- أدخل في الموضوع مباشرة، ولا داعي لكلام الغزل، وقلة الأدب.

أعمل حساب لوجودي، وأنك بتتكلم عن أمي، وياريت تحترم نفسك في كلامك.

- أرجوك يا بشمهندس اهدئ، واتحكم في أعصابك، واتركني أتكلم براحتي، على طبيعتي.

عشان تعرف الحقيقة كاملة، بالدلائل و المستندات، مش بالكلام بس.

وبعد ذلك قرر مصيرك، واكتب النهايه بأيدك.

- اتفضل اتكلم، وياريت بسرعة، وأدب.

- أوعدك هتكلم بأدب واحترام، وبسرعة، عن الست الفاضلة أمك.

كنت منذ طفولتى بحب واعشق الست المحترمة أمك

أيه رأيك كده، باتكلم باحترام وأدب عن أمك.

* وافي ينظر باحتقار لـ سيد ثعلب، وغضب شديد، ويضرب كف بكف، من غبائه وجهله، وأسلوبه بالحديث، ويكاد يصيبه الجنون ولا يدري ماذا يفعل...

ويعاود سيد ثعلب الحديث، بلا أي مبالاة لغضب وافي.

- كانت أمك نموذج رائع للبنت المؤدبة، الرقيقة الجميلة، المحترمة متفوقة في دراستها منذ طفولتها، ليس لها علاقة بأحد من أهل الحارة، أولاد، أو بنات.

كانت من البيت للمدرسة، ومن المدرسة للبيت.

وللحقيقة كانت حلم لي، ولشباب أهل الحارة، وشباب أهل الحي كله.

وكبرت أمك، وكبرت أنا كمان، ومازلت على حبي وعشقي للست المحترمة أمك.

ودخلت أمك الجامعة، وأصبحت شابة جميلة.

حلم لكل شباب الحي كلمة منها، أو نظرة من عينيها الجميلة، كلهم يريدون التقدم لها.

لذلك قررت التقدم لأسرة أمك، طالب يدها، لأحقق أمنية وحلم عمري.

وللأسف الشديد، رُفِض طلبي، رفضوني برغم حبي الكبير لها.

رفضوني بحجة أني فاشل بالدراسة، و العمل، وشقي ومعربد وسيىء السمعة.

هكذا قال لي أبو أمك، بدون إحراج، ولا خجل أني في شقته، راجل صريح جدًا ،جدك ده.

* ونزلت من شقة أمك، وقررت أن أكون إنسان آخر، وأغير حياتي، وأغير من نفسي.

وبعدت عن أصدقاء السوء، وعن حياة العربدة والشقاوة، وأقلعت عن شرب المخدرات.

وبدأت أصلي، وادخل المساجد، واعمل ليل نهار، وادخر الأموال.

عملت كل ذلك من أجل تحقيق حلم عمري، وحبي الوحيد حب السنين.

ومرت الايام و الشهور، عايش على ذلك الأمل، واعمل واجتهد..

* وحدث ما لم أكن أتوقعه، حدث الزلزال الذي دمَّر كل حياتي.

وتزوجَت أمك بالأستاذ الهادي، فضَّلته عني عشان مدرس، ومتعلم.

وأُصبت بصدمة عنيفة، وخيبة أمل كبيرة، وحزن، ويأس.

شعرت أن كل شيء راح منّي، وأصبحت الحياة بلا معنى، ولا طعم ولا أمل، ولا هدف.

* تركت عملي، ولم أعُد أصلي، وعُدت لسيرتي الأولى، وأصدقاء السوء، و الشقاوة.

وأقسمت بالله أن أنتقم من أمك، وأهلها مهما كلفني ذلك.

واجعل أمك وأهلها يندموا أنهم رفضوني، وترجع أمك راكعة نادمة لي.

ويرجوني أني اسامحهم، واغفر لهم، واتزوجها.

و بالفعل لم أضيع وقت، وبدأت أخطط، وأدبر، كيف أنتقم من أمك و أهلها، مهما مرَّ الزمان، ولا بَعُد المكان، سأنتقم منهم في أقرب وقت.. كسروا قلبي ودمروا حياتي.

وبعد بحث، عرفت مكان الشقة التي تزوجت فيها أمك، عش الزوجية السعيد.

عرفت مكان الشقة، عن طريق مراقبة جدتك أثناء ذهابها لأمك لزيارتها.

وراقبت الشقة أيام، وأيام، حتى أنقضى شهر العسل الأسود.

وبدأت أمك النزول للشارع لقضاء احتياجاتها من الأسواق.

وأتفقت مع امرأة ساقطة أعرفها، تراقب أمك ،وتعترض طريقها، وتتطلب منها تدلها على عنوان بامبابة، بحجة أنها غريبة عن المنطقة.

وتتحدث معها، ثم ترشها بمخدِّر، وتأتي بها لشقة بالطريق الدائري. وبالفعل تنجح المرأة الساقطة بالإيقاع بأمك، بعد تخديرها وإحضارها لشقة بالتوك توك، وأصبحت أنا والست المحترمة أمك لوحدنا بالشقة، أخيرًا تحقق حلمي ،وتكون أمك بين أحضاني.

* وافي ينهض من جلسته بغضب وثورة، ويبصق على وجه سيد ثعلب، ويصيح فيه...

- أنت كلب، وحقير، وشيطان، وكذّاب، كذّاب.

وأي كلمة منك تاني عن أمي سأقتلك، خلاص صبري نفذ.

* سيد ثعلب يحاول تهدئة وافي، وبعد معاناة، ومجهود كبير يهدأ، ويجلس بعيدًا على أطراف المركب، ويبعد بقدميه بنرفزة بعض الزجاجات الفارغه بالمركب.

* سيد ثعلب يشعل سيجارة أخرى، ويأخذ نفس عميق، ثم يعاود حديثه مرة أخرى.

- وأصبحت أنا و الست أمك الفاضلة لوحدنا بالشقة.

وقضيت معاها أحلى ليلة فى عمري، بالرغم من أنها كانت فاقدة للوعي و الإحساس، ولكن كنت أنا كُلّى إحساس وشعور، ورغبة، ومتعة، وسعادة.

* وافي لم يتمالك أعصابه، ويمسك بأحدى الزجاجات الفارغة ويقذف بها سيد ثعلب، ويتفادها بمهارة، ويعاود حديثه بكل بجاحة بلا أي مبالاة لمشاعر وافي.

- وقامت المرأة الساقطة بتصوير أمك وهي عارية، كما ولدتها أمها وهي بين أحضانى، صوت وصورة، تقدر تقول صورت فيلم جنس كامل الأوصاف.

* وافي ينهض من جلسته ويقترب من سيد ثعلب ويُفاجئه بلكمة قوية، أسقطته في النيل، وبصعوبة بالغة يصعد للمركب مرة أخرى يصعد وفمه ينزف دم، وملابسه كلها غرقانة مياه.

* سيد ثعلب يمسح الدماء من على فمه، ويصيح في وافي بغضب وينهره، بعد أن باشت السجائر من المياه.

- كده السجاير المتكلفة تبوظ، أعمل فيك أيه..

وكل مره تضربني في وجهي، وانزف دم، لما سنانى أتكسرت لكن هاسامحك عشان الموقف صعب عليك.

إنما اعمل حسابك، دى هتكون آخر مرة تمد أيديك عليَّ.

وأي غلطة منك بعد كده، هيكون حسابك عسير معايا، فاهم يا ولد يا قليل الأدب، احترم أبوك، واسمعنى للآخر... اسمعني، وغصب عنك هتسمعني للآخر، وتعرف الحقيقه كاملة...الحقيقة المُرة لك والعسل لي.

* وافي ينهر سيد ثعلب، وهو مُنهار نفسيًا وجسديًا.

- أنت راجل شيطان، ملعون، وكدّاب.

* سيد ثعلب يرد ببرود، ووقاحة:

- ملعون، شيطان، قليل الأدب، ماشي، مقبولة منك.

لكن تقوللي كذّاب لأ، أنا مش كذّاب، وأملُك الأدلّة على كلامي.

لكن لازم تسمعني للآخر، وهتسمعني، وقولنا الكتير، ومش باقي غير القليل، نرجع لحكايتنا.

وبعد أمك، قصدي الست المحترمة أمك ما فاقت من تخديرها.

ووجدت نفسها عارية تمامًا، كما ولدتها أمها، ثارت، وهاجت كالمجنونة.

وأصبحت أمك في حالة هيستريا، كالفرخة المذبوحة.

لا - أصبحت كالثور الهائج، وحاولت قتلي بالسكين، وأخذتها منها بصعوبة بالغة.

وجرحت يدى جرح كبير، أثره إلى الآن على يدي، شوف.

وبعد ذلك حاولَت حرْق الشقة، وحرقي، وحرق نفسها، بأنبوبة البوتجاز بالمطبخ.

و الحمد لله أنقذتها وأنقذت نفسي و الشقة من الحرق بصعوبة.

و لم تهدىء من ثورتها وغضبها، ومسكت بوجهي وقطّعته بأظافرها، تحاول قتلي.

ولم أجد حل لتهدئة ثورتها وغضبها، سوى ضربها، وضربها بعنف، حتى سقطت على الأرض فاقدة الوعي تمامًا.

اعتقدت أنها ماتت، لأنها قطعت النفس تمامًا، وسالت الدماء من رأسها بغزارة.

وأُصبت بالفزَع و الهلع، والخوف.

وحملتها بسرعة، ورميتها تحت الكوبري الدائري، في مكان خالي من الناس، وهَرَبت.

(14)

* وسافرت لمرسى مطروح هربًا، بعيدًا عن الأحداث، خوفًا أن تكون أمك ماتت أو أبلغت الشرطة بخطفها واغتصابها ،و الاعتداء عليها.

وعقدت العزم، فى حالة موت أمك، أو تبليغ الشرطة باغتصابها الهروب لليبيا.

ومرت الأيام والشهور، وأنا أتابع الصحف، ووسائل الإعلام، عن أي حادث قتل، أو اغتصاب، و الحمد لله، لم تظهر جريمة قتل، أو اغتصاب باسم أمك.

* وقررت العودة سرًا للقاهرة، وراقبت منزل أمك، و الشقة التي تسكن بها مع زوجها، أيام ، وأيام ،حتى وجدت أمك خارجة من منزلها بصحبة زوجها، أرتحت، وحمدت الله.

واطمأنيت على أمك، واطمأن قلبي، وعُدت لحياتي، وأهلي بدون خوف.

* وحاولت بعد ذلك التقرُّب من أمك، وتهديدها بشريط الفيديو والصور لتعود لي، وتطلب الطلاق من زوجها، وتصبح عشيقتي، وحبيبتي، وزوجتي.

وللأسف الشديد فشَلْت، لم تستجب لي، ولتهديدي لها بفضحها أمام زوجها و الناس.

ورفضَت الخضوع لي، ولتهديدي، بقوة وكبرياء، وشجاعة تُحسَد عليها ،ست قوية وعنيدة.

وقالت لي، أفضّل الموت، ولا أخون زوجي، أو أطلب الطلاق، أو أتزوج كلب مثلك، آه و الله قالت لي كلب وقذر، وعديم الضمير والأخلاق، والدين.

نعم قالت لي ذلك قذر، وخاين، ومجرم، وذئب، مع أني بحبها واللهي بحبها.

ملهاش في الطيب نصيب، ولا قلبي الحنون، منها لله ،ظالمة، الله يرحمها.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد من الإهانات و السب، وحاولت قتلي عدة مرات.

أمك امرأه قوية، وعنيدة، وجبارة، وشريفة جدًا، وصعب كسرها أو إذلالها ،بتحب جوزها جدًا، مش عارف ليه، مراية الحب عامية بعيد عنك.

لذلك أنا باعترف بفشل محاولاتي، وتهديدي لها، وإجبارها على الخضوع لي.

رفضتني بالرغم من حبي لها، وأني حنون، ولطيف، وطيب وحَبوب.

وبصعوبة أستطعت عمل أتفاقية معها، تعطيني كل شهر خمسمائة جنيه مقابل سكوتي، و البُعد عنها، وعن حياتها.

وللحق كانت أمك ملتزمة معي جدًا، ترسل لي حوالة كل أول شهر المبلغ المتفق عليه، ومعي الإيصالات الدالّة على ذلك.

وبها اسم الراسل، وعنوانه، واسم المرسل اليه، بالتاريخ و الساعة.

ولم تمر شهور طويلة، ولُفقت لي قضيه، الإتجار بالمخدرات.

وعندي شك كبير، أن أمك وراء حبسي، وهي التي أبلغت عني أكيد... أكيد وتم حبسي عشرون عام، مجموع عدة قضايا أخرى تم الحكم عليَّ فيها غيابيًا.

القدر رحم أمك بوفاتها، قبل خروجي من السجن.

كان نفسي انتقم منها، وافضحها، واخرب بيتها، واطفيء ناري منها.

وطوال فترة سجني، لم ترسل لي المبلغ المتفق عليه.

خاينة للأمانة والعهود، و أنقطعت أخبارها عني تمامًا، ولم تزورني والآن سأكشف لك الحقيقة بالمستندات.

* ويفتح سيد ثعلب شنطته، ويخرج منها بعض الإيصالات والحوالات البريدية، و الصور ، وسي دي، وبعض الصور له، قائلًا:

- خد اطَّلع وشوف براحتك الإيصالات و الحوالات، والصور لأمك وهى في حضني بأوضاع مختلفة، وهذا السي دي به فيلم بطولتي أنا وأمك، فيلم للكبار فقط، فيلم جنسي.

وهذه صورة وأنا في شبابي، في نفس عمرك تقريبًا.

شوف الشبه الكبير بينا، فولة واتقسمت نصين، نسخة طبق الاصل صحيح عُمر الدم ما يبقى ميه ياناس.

حتى طبعة الحُسن اللى بذقني، موجودة عندك، يا سبحان الله.. نسخة مني ياناس.

-نسختي في الارض وانجازي الوحيد.

كل هذه الدلائل تؤكد مما لا شك فيه، أنك ابني، ومن صُلبي.

* وافي ينظر بدقة على الإيصالات و الحولات و الصور ويحدث له حالة من الذهول، والصدمة، والحزن و الغضب، ويحمَر وجهه، ثم يقذف بالصور، والإيصالات و الحوالات في وجه سيد ثعلب بنظرات كلها غضب، واحتقار، وكُره شديد.

* سيد ثعلب يلملم الصور و الإيصالات والحوالات من على أرضية المركب.

وينظر لـ وافي بضحكة صفراء، قائلًا له:

– على فكرة، أنا عندي منهم نُسخ تانية، لكن أنا بلمهم خوفًا من أن يقعوا في أيد غير أمينة، ويفضحكم، خاصةً أنها صور جنسية، وفيلم جنس، وأنت عارف عليهم إقبال قد أيه.

على فكرة أنا عندي صور منهم كتير، مقدرش استغنى عنهم أبدًا لأنهم بيفكروني بأحلى ليلة في عمري، وهذه الليلة المباركة خلفتك فيها، عشان كده أنت إنجازي الوحيد في الدنيا.

عرفت الحقيقة، ومين أبوك الحقيقي، بالأدلّة، والصور.

عشان كده من مصلحتك، ومصلحة أبوك المخدوع، أبوك المزيف الشيخ الجليل ومربي الأجيال، ورجل البِر و الإحسان...

يعرف أنه لا مؤاخذة، مراته الست الفاضلة خدعته، و لبسته طرطور، طرطور كبير.

* وافي يثور في وجه سيد ثعلب، ويقاطع كلامه.

– اخرس ياكلب، ياحقير، إياك تجيب سيرة الراجل الفاضل المحترم على لسانك القذر، أنت شيطان، لا يمكن تكون إنسان أبدًا.

* سيد ثعلب يتصدى لـ وافي بقوة، و يمسك زجاجة فارغة ويهدده قائلًا:

– أخرس قطع لسانك، قليل الأدب، عديم التربية.

لعلمك أنا لن أسمحلك مره ثانية بالتطاول و الاعتداء عليَّ بالضرب و السب بعد ما عرفت الحقيقة كاملة بالأدلّة و المستندات، أنى أبوك، أبوك الحقيقي، ولك الشرف.

أنا أبوك، ولازم تحترمني، تحترم أبوك، أبوك الأصلي ،زي ما بتحترم أبوك المزيف، المخدوع فيك، وفي أمك.

ومن مصلحتك ومصلحة أبوك المزيف، وأخواتك البنات، وسُمعتهم ومستقبلهم، تسمعني بأدب، وتحترمني.. وتيجي في حضني، حضن أبوك الحقيقي، تعالى في حضني ياوله، أنا أبوك.

* وافي يبعد يد سيد ثعلب عنه بغضب وعنف، ونظرات احتقار ويصيح فيه...

- ابعد عني، لا تلمسني، أنت شيطان، وأنا لا يمكن أكون ابن للشيطان.

أنا لا يشرفني أنك تكون أبويا، حتى ولو كانت هى دي الحقيقة حقيقة مُرة، كلها غدر وخيانة، ونذالة.

وإن كان هذا قدري، أني أكون ابنك، ابن من خيانة، واغتصاب وغدر.

فأنا رافض هذا القدر، ورافضك، فاهم رافضك.

لأني باحتقرك، ومش باحترمك، ومش ممكن تكون أبويا، حتى ولو أنت أبويا فعلًا.

* سيد ثعلب يضحك ضحكته الصفراء ساخرًا، ثم ينظر له بغضب قائلًا له:

- أنت عنيد زي امك، امك رفضتني رغم حبي لها، رفضت الخضوع لي ولتهديدي لها.

وأكيد هي التي بلَّغت عني، وأدخلتني السجن، عشرون عامًا ضاعوا من عمري، أمك ربنا رحمها بموتها قبل خروجي من السجن.

كان نفسي، وأمنية حياتي افضحها، واخرب بيتها، وادمرها.

وأنت لو رفضت تعترف بي، وتحمل اسمي، وتعترف أني أبوك أمام كل الناس، هادمرك.. واضيَّع مستقبلك، وهاخليك تندم طول حياتك، واخلَّص تاري من امك فيك، وأطفيء ناري... مش بس كده.

أنا هادمر أبوك المزيف، الزوج المخدوع، الأستاذ و مربي الأجيال، والشيخ الجليل، ورجل البر والخير، وكبير الحي، هيبقى طرطور الحي.

وانشر صور مراته الست الفاضلة، وهي عريانة كما ولدتها أمها وهي في حضني، وهانزل شريط الفيديو، قصدي Cd، على كل المواقع، ويشوفوا زوجة الشيخ الجليل، قصدي الشيخ المغفَّل.

ويعرف، أنت ابن مين، لما أحط صورتي جنب صورتك.

ويعرف حقيقة مراته الخاينة، قليلة الأدب.

ويشك الزوج المخدوع فيك، وفي أولاده البنات.

ويتخرب البيت على اللي فيه، وتدمر حياتكم، ويتخرب بيتكم.

وأخواتك البنات مين هيتجوزهم، وأمهم لا مؤاخذة، وأبوهم لا مؤاخذة طرطور كبير- مخدوع كبير.

* وافي يشطاط غضبًا، ويصيح كالثور الهائج، ويمسك به يضربه.

سيد ثعلب يفاجيء وافي، ويضربه على رأسه بأحدى الزجاجات الفارغه التي على المركب، وتنزف الدماء بغزارة من وجهه.

وافي يتحمل الضربة، ويهجم على سيد ثعلب ويأخذ منه الزجاجة ويضربه بها على رأسه عدة ضربات متتالية، ليفقد سيد ثعلب توازنه، ويسقط في النيل، ليلوث مياه النيل بدمائه.

ويمسك وافي بشنطة سيد ثعلب، وكل الإيصالات والحوالات ويحرقهم جميعًا ويعود بالمركبة للشاطيء، ويذهب لقسم الشرطة مُعترِف بقتله لـ سيد ثعلب، مبرر قتله بخلافات مالية.

ومضحيًا بنفسه، وعمره، ومستقبله، وحبه، من أجل أسرته.

من أجل شرف أمه، وسمعتها، لتظل الزوجة الوفية المخلصة في عين زوجها وعِشرة عمرها.

وتظل الأم العظيمة في عيون بناتها، وأمام كل المجتمع و الناس، ويظل الشيخ الجليل، ومربي الأجيال مرفوع الرأس دائمًا وأبدًا.

* ليضحي وافي بنفسه من أجل شرف وسُمعة أمه، ووالده، وأخواته البنات.

يموت لتحيا أسرته في عِزّة وكرامة.

وينهي وافي رسالته الطويلة والحزينة قائلًا:

- نعم قتلت والدي من أجل أبي، أبي الراجل الفاضل، الأستاذ العظيم.

نعم قتلت والدي من أجل سُمعة وشرف أمي.

أمي الست العظيمة، والأم الحنونة، والزوجة المخلصة الوفية

نعم قتلت والدي من أجل سُمعة ومستقبل أخواتي البنات.

أحلى وأجمل أخوات بنات في الدنيا، عشرة عمري الجميلة.

نعم قتلت والدي، قتلت الشيطان، الخاين الغدّار، من أجل أسرتي الطاهرة.

هكذا كانت رسالتي، وهكذا كانت حكايتي، وأسباب جريمتي.

رسالة أبعثها إليك من تحت الارض، من العالم الآخر.

رسالة من تلميذك / وافي الهادي الطيب.

* وأنتهت رسالة وافي، لتنساب دموعي، حُزنًا لفقد هذا الشاب النبيل.

وظللت أبحث عن قبر وافي، لأزوره، وأؤنس وحدته، وأجلس معه في مرقده، أجلس معه أحدثه، بدموع من نار، حزنًا على فراق ذلك الشاب الجميل النبيل.

وذهبت لقبره، وقت غروب الشمس، وفوجئت بوجود والده الأستاذ الهادي الطيب ومعه خطيبة وافي، وحب عمره ولاء، يجلسان ويبكيان على قبره بحزن كبير.

ويدعي له والده بأدعية تبكي القلوب.

لم أتمالك نفسي لأبكي معهم على فراق وافي الشاب المثقف المهذب، الجميل، وقبل أن أغادر قبره، عزيتهم وقلت لهم:

- إن وافي بريء، ضحى بنفسه من أجلهم.

– وتركتهم مع أحزانهم، ودموعهم، وسرت بين القبور، والشمس تغرب حزينة على فراق وافي، ذلك الشاب النبيل.

الذى قتل والده من أجل أبيه وأسرته.

رقم الإيداع: 2464 / 2019

الترقيم الدولي: 1 - 263 - 838 - 977 - 978